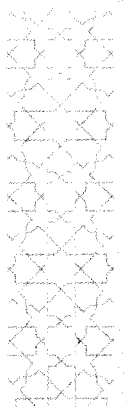




من أساليب التشويق في قصص القرآن الكريم دراسة تحليلية

د . علي بن محمد الحمود
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية







من أساليب التشويق في قصص القرآن الكريم

دراسة تحليلية

د. علي بن محمد الحمود

قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي - كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث :

اتجهت هذه الدراسة إلى تقديم النموذج الفريد المعجز في تحقيق عنصر التشويق في القصة ، ودعت القاصين إلى شحذ طاقاتهم التعبيرية واستثمار أدواتهم الفنية المتنوعة في بعث الحياة في قصصهم من خلال النظرة العميقة المتأنية إلى القصص القرآني المعجز الفريد في جميع جوانبه الموضوعية والفنية .

وقد عملت على إبراز الإعجاز القصصي القرآني من خلال تقديم المنهج الصحيح في التعامل مع العناصر الفنية المختلفة ، ومنها عناصر التشويق ، وذلك لتقويم مسار واقع قصتنا المعاصر التي انحرفت في كثير من نماذجها عن جادة الصواب .

ونظراً لأن عناصر التشويق في قصص القرآن الكريم أكثر من أن تحصى اقتصرنا الدراسة على الوقوف عند بعضها ؛ لتكون بمثابة نماذج لبراعة القرآن الكريم في عرض موضوعاته بصورة مشوقة مائعة ، والعناصر هي : تقديم الأحداث المعجزة الخارقة للعادة ، وتنوع الشخصيات ، وعنصر المفاجأة ، وبراعة التصوير ، وفنية الحوار ، والاقتصار على تقديم الجوانب المهمة .



المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فإن الفن القصصي من أكثر الأجناس الأدبية شيوعاً وانتشاراً في عصرنا هذا ؛ لما يقدمه للقارئ من متعة وتسلية وفائدة ، فهو يعمق فهمنا للحياة عن طريق تقديمه نماذج بشرية متنوعة أثناء تعرضها لمواقف وأحداث مشابهة لتلك التي نعيشها في حياتنا الواقعية ، فالقارئ يجد في تلك الحياة تشابهاً مع حياته أو حياة بعض معارفه ، ويتعرف إلى شخصيات مشابهة له أو لأحد معارفه .

أما الكتاب – وبخاصة أصحاب الدعوات والفكر – فوجدوا في الفن القصصي وسيلة ناجعة لنشر آرائهم ودعواتهم في المجتمعات .

والقصة كانت من الأساليب التي استثمرها القرآن الكريم في الإقناع والتأثير لنشر الدعوة ، وإقامة الحججة على المعاندين ، وتصحيح الجوانب العقيدية والخَلقية لدى الناس ، والإصلاح والتوجيه والتربية ، وغيرها من المقاصد التي سعت القصة القرآنية إلى تحقيقها .

وبما أن القصة أسلوب محبوب إلى الناس ؛ كباراً وصغاراً ، فلا بد أن تُستثمر في نشر القيم الصحيحة في المجتمع ، وتكون وسيلة من وسائل الدعوة والتربية . ومن هذا المنطلق فإن هذه الدراسة تدعو إلى اتخاذ القصة القرآنية نموذجاً يحتذى ؛ لأنه أحسن القصص ﴿ لَمَّا نَسُوا مَا آلَتْ لَهُمْ أَيْمَانُ وَعَذَابُ اللَّهِ كَانَ أُولَئِكَ يَوْمَئِذٍ يَكْفُرًا ﴾ (يوسف : ٢) .

فالقصة القرآنية هي أحسن القصص بموضوعاتها المتميزة وبطريقة عرضها الفنية التي جاءت حافلة بالإثارة والتشويق . والفن الإسلامي « في حاجة شديدة لأن يراجع القرآن ، فهو الذخيرة الموحية لهذا الفن ، كما هو الذخيرة الموحية للحياة »^(١) .

ونحن هنا – بطبيعة الحال – لسنا بصدد الموازنة والمقارنة بين قصص القرآن الكريم والقصة البشرية ، فهذا الأمر غير مطروح ، فبداية لا بد من التأكيد على « أنه لا مفاضلة ولا معادلة ولا موازنة بين قصص القرآن وغيره بأي حال وعلى أي اتجاه . فإذا قلنا – أو قال غيرنا – إن قصص القرآن يتميز عن قصص الناس بكذا وكذا فإنه من باب ذكر بعض وجوه الإعجاز ؛ للعبارة والاعتبار ، بغض النظر عن المقارنة والمفاضلة والموازنة ، وما إلى ذلك ، فأين الثرى من الثريا ! »^(٢) .

(١) نظرات في قصص القرآن : محمد قطب عبد العال : ١٠ .

(٢) قصص القرآن (من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل) : د. محمد بكر إسماعيل : ٩ – ١٠ .

وفي هذا المقام لا بد أن أشير إلى أنه في قصتنا العربية الحديثة اعتمد بعض الكتّاب على وسائل مبتدلة ؛ بهدف منح قصصهم مزيداً من التشويق والإثارة . وقد تحقق لهم ما أرادوا ، فبدت قصصهم مشوقة مثيرة جاذبة لجمهور عريض من المتلقين ، وبخاصة من فئة الشباب ، لكن التشويق في تلك القصص كان تشويقاً رخيصاً مبتدلاً مقحماً على أحداث تلك القصص . وكان في مقدمة تلك الوسائل الرخيصة الخروج على قيم المجتمع الدينية والأخلاقية ، من خلال السخرية من المعتقدات والقيم الدينية ، وتقديم الشخصيات الدينية بصورة ساخرة ، وإقحام المشاهد الجنسية المسفة المموجة على أحداث تلك القصص ، دون أن يكون لها أي أثر فني أو موضوعي في بنائها ، والإسراف في الاعتماد على اللهجات العامية في أسلوب تلك القصص ، وغيرها من وسائل التشويق الرخيصة التي - ومع الأسف - حققت لأصحابها شهرة واسعة مؤقتة وانتشاراً عريضاً زائفاً ، وقدمت للقراء قصصاً تخاطب الغرائز ، فأقبلوا عليها - وبخاصة فئة الشباب - وفي الوقت ذاته تخلو من القيم الموضوعية والفنية ، ويؤكد ذلك أن ما حققته تلك القصص من رواج وانتشار سرعان ما زال واندحر ، وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُنْ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ (الرعد: من الآية ١٧) .

ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتقدم النموذج الفريد المعجز في تحقيق عنصر التشويق في القصة ، وتدعو القاصين إلى شحذ طاقاتهم التعبيرية واستثمار أدواتهم الفنية المتنوعة في بعث الحياة في قصصهم من خلال النظرة العميقة المتأنيبة إلى القصص القرآني المعجز الفريد في جميع جوانبه الموضوعية والفنية .

إن هذه الدراسة تهدف - فيما تهدف - إلى إبراز الإعجاز القصصي القرآني من خلال تقديم المنهج الصحيح في التعامل مع العناصر الفنية المختلفة ، ومنها عناصر التشويق ، وذلك لتقويم مسار واقع قصتنا المعاصر التي انحرفت في كثير من نماذجها عن جادة الصواب . ومن خلال تتبعي لكثير من الدراسات التي اتجهت إلى دراسة القصص القرآني لم أقف على دراسة مستقلة عُييت بإبراز جانب التشويق في تلك القصص ، على الرغم من كثرة تلك الدراسات ، وهذا لا يعني - بطبيعة الحال - خلوها من إشارات ووقفات مستنيرة أضاءت لي الطريق ومهدته في أثناء إعداد هذه الدراسة ، وقد ذكرت بعضها في مصادر الدراسة ومراجعتها .

ونظراً لأن عناصر التشويق في قصص القرآن الكريم أكثر من أن تحصى رأيت أن أقتصر في هذه الدراسة على ذكر بعضها ؛ لتكون بمثابة نماذج لبراعة القرآن الكريم في عرض موضوعاته بصورة مشوقة ممتعة . ومنعاً للتكرار تجاوزت الحديث عن بعض عناصر التشويق المهمة ، مثل : الجوانب البلاغية ؛ لأن هناك دراسات كثيرة جداً أبرزت هذا الجانب ، وتجنبت الحديث عن عنصر البداية والنهاية في قصص القرآن ؛ لأن هناك دراسة مستقلة عنيت بهذا الجانب المشوق في تلك القصص ^(١) .

وجاء البحث في مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة وثبت للمصادر والمراجع .
وأسأل الله تعالى أن تسهم هذه الدراسة في تسليط الضوء على بعض جوانب الإعجاز القصصي في القرآن الكريم ، وأن تسهم في إبراز بعض عناصر التشويق الموضوعية والفنية في ذلك القصص المعجز الفريد .

التمهيد : مفهوم التشويق في الفن القصصي :

الشوق لغة : نزاع النفس وحركة الهوى ، وشاقني حُبها هاجني ، وشاق الطنب إلى الوند شدّه وأوقفه به ^(٢) .

والتشويق في ميدان القصة يعني « ترقب القراء أو النظارة لما ستكون عليه نهاية الأحداث في رواية أو قصة أو تمثيلية ، وهي صفة من صفات التوتر تحتفظ باهتمام الجمهور ، وتجعله يتساءل ما الذي سيحدث بعد ذلك ؟ » ^(٣) .

ويعدّ التشويق من السمات التي تميز أسلوب الفن القصصي عن غيره من الأساليب في الأجناس الأدبية الأخرى . وهو عنصر مهم من عناصر نجاح أي قصة ، وافتيقاده يؤدي إلى تسرب الملل إلى القارئ ؛ مما يدفعه إلى ترك متابعة الأحداث .

ولا بد أن يتصف القاص بالموهبة التي تمكنه من جعل التشويق جزءاً لا يتجزأ من بناء القصة ، وألا يفترق التشويق افتعالاً ، بحيث يبدو دخيلاً على أحداث القصة ^(٤) .

وإذا ما وُظف عنصر التشويق بالصورة المناسبة فهو الذي يمنح القصة القدرة على لفت انتباه القارئ ، ودفعه إلى متابعة القراءة ، متلهفاً متشوقاً لمعرفة ما ستجلي عنه الأحداث ، وكيف سيواجه البطل مصيره ؟ ومن هنا فإن الأحداث تستحوذ على عقل القارئ ووجدانه

(١) ينظر : الدرعية (مجلة) السنة العاشرة ، العددان : السابع والثامن والثلاثون (ربيع الأول - جمادى الآخرة ،

١٤٢٨هـ) ، بحث (جمالية البداية والنهاية في القصة القرآنية : د . عبد الله العريني : ١٩٥ - ٢٣٠) .

(٢) ينظر : القاموس المحيط : الفيروز أبادي : مادة (شوق) ..

(٣) معجم المصطلحات الأدبية : إبراهيم فتحي : ٨٨ ..

(٤) ينظر : دراسات في القصة العربية الحديثة : د . محمد زغلول سلام : ٣١ - ٣٢ .

، حتى يفرغ من قراءة القصة ، بل ربما استمر ذلك الأثر حتى بعد الانتهاء من القراءة ، وربما أعاد قراءتها مرة أو مرات عدة.

والتشويق عنصر من عناصر الحكمة الفنية في القصة^(١) التي تشمل عناصر عدة، هي: البداية والصراع والعقدة والتوقيت والإيقاع والنهاية بالإضافة إلى عنصر التشويق ، وهذه العناصر مجتمعة هي التي تقوم بربط أحداث القصة من بدايتها إلى نهايتها ، ويكون التأكيد فيها على مبدأ السببية .

والحكمة الفنية هي التي تفرق بين القصة الفنية وغيرها ، فكل قصة تقوم على أحداث ، لكن في القصة الفنية تجري الأحداث وفق نظام معين تقوده الحكمة الفنية التي تعمل على أن تكون الأحداث والشخصيات « مرتبطة ارتباطاً منطقياً يجعل من مجموعها وحدة ذات دلالة محددة »^(٢) . ولعنصر التشويق أهميته في بناء الحكمة القصصية، فهو من العناصر الرئيسة في تطوير الموضوع إلى مشكلة، وإيجاد مواقف جديدة تضي على القصة مزيداً من الحيوية والإثارة^(٣) . ويختلف عنصر التشويق باختلاف عرض الكتاب له ونظرتهم إليه ومعالجتهم إياه ، ويتمثل في كل ما يعمد إليه القاص من حيل ، وما يعرضه من مواقف تسهم في تطور أحداث القصة، وتشد القارئ إليها ، ومن ذلك : إخفاء سر معين عن القارئ^(٤) ، والغموض ، والإبهام، والإلغاز ، والتناقض ، وأسلوب المماثلة في الكشف عن الأحداث والشخصيات وحل العقدة القصصية ، وإحداث مفاجأة تعمل على تغيير مسار الأحداث^(٥) ، وحدة الصراع ، والمفارقة الجزئية والكلية ، ولغة القصة ، وسرعة الإيقاع، والحركة والحيوية ، وطبيعة الموضوع ، وغيرها من الوسائل الفنية والموضوعية التي يستثمرها القاص في إثارة القارئ وتشويقه ودفعه إلى متابعة قراءة القصة بلهفة وشغف ؛ لمعرفة مصير الشخصيات والأحداث .

وبعد توضيح مفهوم التشويق في القصة الفنية التي مصدرها البشر سيتم الحديث عن التشويق في قصص القرآن الموسوم بأحسن القصص ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ ﴾ (يوسف : ٣) .

(١) الحيك في اللغة بمعنى الشد والإحكام ، وتحسين أثر الصنعة في الثوب. ينظر : القاموس المحيط : مادة (حيك) . والحكمة في الاصطلاح « هي سلسلة من الأفعال التي تصمم بعناية ، وتتشابك صلاتها عبر صراع قوي بين الأضداد ذروة وانفراجاً » . معجم المصطلحات الأدبية : ١٣٥ .

(٢) الأدب وفنونه : د. عز الدين إسماعيل : ١١٢ .

(٣) ينظر : فن كتابة القصة : حسين قباني : ٤٠ . والقصص في الحديث النبوي : د. محمد الزير : ٢٠٧ .

(٤) ينظر : دراسات في القصة العربية الحديثة : ٢٨ - ٢٩ .

(٥) ينظر : فن كتابة القصة : ٤٠ - ٤١ . وفن القصة : د. محمد يوسف نجم : ٤٠ - ٤٣ .

إن القصة القرآني هو أحسن القصص بما اشتمل عليه من الموضوعات المتنوعة ،
والعرض المعجز ، وقوة الأداء والتأثير ، وبراعة الوصف ، وغيرها من العناصر الفنية والموضوعية
، وعلى الرغم من أنه يساق لتحقيق أغراض عقديّة وتربوية ، وينطلق من منطلقات دينية بحته
، إلا أنه يفي بمتطلبات الفن القصصي أبرد ما يكون الاستيفاء ، لكن على طريقته الخاصة^(١) .

ومع أن القصة القرآني قائم على الحقائق المطلقة ، وخاضع في موضوعه وطريقته عرضه ،
وبناء أحداثه إلى مقتضى الأغراض الدينية – إلا أنه حافل بألوان الإثارة والتشويق التي يفتقدها
غيره من القصص^(٢) . فالقصة القرآني « يثير في النفس الانفعال ، ويحرك في القلب العواطف
، ويجذب القارئ أو السامع إلى متابعة الموقف القصصي إلى النهاية ، فيبدو الموضوع القصصي –
الذي يحمل الغرض الديني – عالماً في الذهن ، وحيّاً في النفوس ؛ مما يؤدي إلى حالة من التطهير
أو من التحول أو من الثبات ، ولكنه في كل الحالات يبقى شيئاً مؤثراً »^(٣) .

وينبغي ملاحظة أن قصة القرآن الكريم تختلف عن غيرها من القصص في موضوعاتها
ومقاصدها ومنهجها وطريقة عرضها ، لكنها تشترك معها في بعض الجوانب الفنية ، مثل :
تحقيق التشويق والإثارة والإبهار والإدهاش ، فقصة القرآن تحقق هذا العنصر المهم بطريقتها
المعجزة ، وبيانها الفريد ؛ مما يجعل التشويق فيها يبدو جزءاً حيوياً مهماً في سياق القصة ،
يسهم مع غيره من العناصر الفنية والموضوعية في تحقيق مقاصدها الدينية والتربوية .

ومن هذا المنطلق ينبغي النظر إلى قصة القرآن بوصفها وسيلة فنية استثمرها القرآن
الكريم « لعرض مبادئه ، والدعوة إليها ، والتربية على أساسها ، وتثبيت حقائقها في قلوب
المؤمنين . فلا تهدف القصة القرآنية إلى التاريخ ، لا تاريخ الرسالات والرسول ، ولا تاريخ الأمم
والأشخاص ، إنما تأخذ من الواقع التاريخي ما يفي بتحقيق هدفها الأصيل ، كما لا تهدف إلى
المعرفة الثقافية ، ولا إلى المتعة والتسلية ... »^(٤) . ومع هذا نجد حافلة بالتشويق الذي كان
أداة من أدوات القرآن الكريم المتعددة في تحقيق مقاصده المتنوعة .

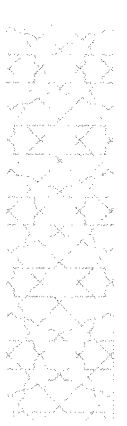
* * *

(١) ينظر : القصة في القرآن (مقاصد الدين وقيم الفن) : محمد قطب عبد العال : ٨ .

(٢) ينظر : البيان القصصي في القرآن الكريم : د . إبراهيم عوضين : ١٧٠ .

(٣) القصة في القرآن (مقاصد الدين وقيم الفن) : ٢٤٦ .

(٤) منهج القصة في القرآن : محمد شديد : ٦١ .



المبحث الأول : تقديم الأحداث المعجزة الخارقة للعادة :

من سمات أحداث قصص القرآن الكريم اشتغالها على مجموعة كبيرة من المعجزات الخارقات للعادة ولمظاهر الحياة الطبيعية التي نطالعها عبر قراءة تلك القصص المعجزة الفريدة في موضوعها وأسلوبها وبيانها وطريقة عرضها.

ومما لا شك فيه أنّ جميع ما جاء في القرآن الكريم من قصص وأخبار وأحداث هو من الحقائق الثابتة التي لا مجال للشك فيها، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، نَزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢).

إنّ قصص القرآن الكريم تقوم على وقائع حقيقية تاريخية ثابتة، لا عمل للخيال القصصي فيها، ولا صلة للأساطير والخرافات بها، إنما هي من تدبير الله سبحانه وتعالى ومن تقديره^(١). والقرآن الكريم يبعث أحداث قصصه « على الصورة التي كانت عليها لحظة وقوعها، بحيث لو رآها الذين شهدوها أو شاركوا فيها لأيقنوا أنهم ما زالوا حيث هم لحظة وقوع الحدث »^(٢). والأحداث الخارقة التي جاءت في قصص القرآن « تدخل في باب الإعجاز الذي أُيد به الله رسله وأنبياءه. فقد جرت حكمة الله الأزلية أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات والدلائل الواضحات والحجج والبراهين الدامغة التي تدل على صدقهم وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير. وهذه المعجزات معجزات حسّية تتناسب مع العصر والزمان والموقف الذي حدثت فيه »^(٣).

وتعدّ تلك الأحداث من العناصر الفاعلة في قصص القرآن الكريم لما تثيره من انفعالات تملك على الإنسان أحاسيسه، وتسيطر على فئة المؤمنين مشاعر متباينة، تمتزج فيها الدهشة والانبهار بتلك الأحداث، والإعجاب والإيمان بقدره الخالق تعالى، فيظل الإنسان المؤمن مترقباً لما ستسفر عنه الأحداث. أما غير المؤمنين فتكون تلك المعجزات بمثابة القوى الغيبية التي تعمل على إظهار عجزهم عن العودة إلى الحق، والإصرار على العناد والمكابرة، على الرغم من وضوح الحقيقة التي لا مجال للشك فيها، لكنهم يستمرون في غيهم وحيرتهم وترددهم، فتكون تلك المعجزات سوطاً مسلطاً عليهم، يؤنبهم ويوبخهم ويهددهم من مصير عنادهم وتكبرهم.

(١) ينظر: البيان القصصي في القرآن الكريم: ١١٢، و القصص القرآني في منطوقه ومفهومه: عبد الكريم الخطيب: ١٤٨.

(٢) القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور: عبد الكريم الخطيب: ٧ - ٨.

(٣) القصة في القرآن (مقاصد الدين وقيم الفن): ٦٢.



وورود تلك الأحداث المعجزة بالصورة التي وردت عليها يمنح القصص مزيداً من الإثارة والتشويق، ويحدث فيها دويماً هائلاً يعمل على تغيير مسار الأحداث ؛ « ولهذا فإن هذا العنصر يدخل دخولاً مفاجئاً مبالغاً، لا يتوقعه أحد ممن يشتركون في الصراع المحتدم على مسرح الأحداث، أو الذين يشهدون هذا الصراع »^(١)

وحينما نصف تلك الأحداث التي حفلت بها قصص القرآن بأنها معجزة وخارقة للعادة ولمظاهر الحياة الطبيعية، فإننا ننظر إليها من خلال العقل البشري القاصر الذي يقيس الأشياء ويحاكمها بالمقاييس البشرية المحدودة العاجزة عن تصورها، لكن الإيمان بقدرة الله تعالى غير المحدودة تدفع المؤمنين إلى الإيمان إيماناً يقينياً أنها من معجزات الله تعالى المادية التي أيد بها رسله، وتحدى المنكرين. فورودها وأشباهاها في قصص القرآن الكريم « موافق لطبيعتها، فالذي يقص علينا هو أحكم الحاكمين، وهو القادر على كل شيء، ووقوع تلك الأحداث أمر حتمي في سياق العلاقة بين النبي وقومه، أو بين الشخصية والمعجزة التي جرت على يدها »^(٢).

والمعجزات التي حفلت بها أحداث قصص القرآن الكريم تنوعت صورها بحسب تنوع المواقف التي وردت فيها، والأغراض التي ترنو إلى تحقيقها. والمقام هنا لا يتسع إلى تقديم كل ما اشتملت عليه تلك القصص من معجزات؛ لذا سأقدم نماذج متنوعة تبرز أثر تلك المعجزات في منح قصص القرآن مزيداً من التشويق والإثارة.

وسأبدأ بذكر بعض تلك المعجزات المتعلقة بأنبياء الله تعالى ورسله (عليهم الصلاة والسلام)، ومنها ما نطالعه في قصة إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) من معجزات خارقة للعادة ولطبيعة الأشياء، كنجاته من النار - بأمر الله تعالى - التي من طبيعتها الإحراق، لكن قدرة الله تعالى وتديبره صيرتها برداً وسلاماً على إبراهيم (عليه الصلاة والسلام). ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (الأنبياء: ٦٨ - ٧٠).

اقتضت حكمة الله تعالى الإلهية أن تخالف النار طبيعتها التي اعتادها الإنسان في واقعه، فكان حضور هذه المعجزة الإلهية الخارقة للعادة عنصراً مؤثراً مشوقاً يحدث في نفس المتابع دويماً هائلاً، تمتزج فيها مشاعر الإيمان بقدرة الله تعالى، والإعجاب بها؛ مما يدفعه إلى متابعة تلك الأحداث لمعرفة ما ستؤول إليه.

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه: ٨٤١.

(٢) خصائص القصة الإسلامية: د. مأمون فريز جزار: ١٨.

وفي موقف آخر من قصة إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) نجد أن السكين التي من طبيعتها القطع تخالف تلك الطبيعية بأمر الله تعالى ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَارِ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَكُونُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعْنِي أَنْ يَبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (الصفات : ١٠٢ - ١٠٥) .

استجاب إبراهيم وإسماعيل (عليهما الصلاة والسلام) لأمر الله تعالى ، وشرعا في تنفيذه ، « فقال إبراهيم عليه السلام : نعم العون أنت يا بني على أمر الله ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه ، وهما بيكيان ، ثم وضع السكين على حلقه فلم تعمل ، لأن الله ضرب صفيحة من نحاس على حلقه ، فقال له : كني على وجهي فإنك إن نظرت وجهي رحمتني وأدركت رقة تحول بينك وبين أمر الله ، ففعل ، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ... » (١) .

خالفت السكين طبيعتها المعتادة بأمر الله تعالى ، فجاءت تلك المعجزة الخالدة التي نذكرها في كل عام في موسم الحج ، وكلما قرأنا تلك القصة المعجزة العجيبة الفريدة المليئة بالإثارة والتشويق الذي يحبس الأنفاس ، ويحرك المشاعر ، ويحزض المؤمن في كل زمان ومكان على جعل طاعة الله تعالى والاستجابة لأوامره فوق كل اعتبار ، فإبراهيم (عليه الصلاة والسلام) شرع في ذبح وحيد الذي رزقه الله به بعد أن جاوز الثمانين من العمر ، وحينما أصبح شاباً يسانده في رفع قواعد البيت الحرام ، جاء أمر الله تعالى بذبحه ، فشرع في التنفيذ دون أدنى تردد ، ومن هنا استحق إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) تلك المنزلة الكبيرة التي نالها ، فهو أبو الأنبياء ، ومن أولي العزم من الرسل .

ونطالع في قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) مجموعة من الأحداث والمواقف المعجزة الخارقة للعادة ولطبيعة الأشياء ، فالعصا كان لها حضور لافت في قصته ، ﴿ وَمَا تَلَاكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهْسُ بِهَا عَلَىٰ عَنَقِي وَإِي فِيهَا مَارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلَيْسَ لِي بِمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَيْتُهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفَ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمُ بِدَلِكِ إِلَىٰ جَانْحِكِ مَخْرُجِ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءِ آيَةٍ أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِيُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ (طه : ١٧ - ٢٣) .

تحولت العصا في يد موسى (عليه الصلاة والسلام) حية تسعى ، ثم أعادها الله تعالى سيرتها الأولى ، وتحولت اليد السمراء بيضاء كالثلج من غير سوء ، ثم أعادها الله تعالى كما كانت سمراء . وكانت هاتان الآيتان من الآيات الكبرى التي خصه الله بها ، وثبت قلبه . وموسى لم

(١) الكشاف : الزمخشري : ٥٣ / ٤ . وينظر : قصص الأنبياء : ابن كثير : ١ / ١٦٨ .

يكن في تلك اللحظة يحتاج إلى هاتين المعجزتين ، والمفسرون عللوا ذلك بأقوال عدة ، منها أن يعلم أنه لقي الله تعالى حقاً ، وأن الله تعالى سلّحه بسلاح يجابه به فرعون وسحرته (١) .
 في المشهد السابق كلّم الله تعالى رسوله وكلّمه موسى (عليه الصلاة والسلام) .
 وكانت العصا المعجزة الخارقة للعادة حاضرة ؛ مما أضفى على الجو العام للقصة تشويقاً وإثارة ، فالموقف الذي تعرض له موسى كان رهيباً انحبست منه أنفاسه ، فهو يكلم الله تعالى، ويشاهد العصا التي بيده تخالف طبيعتها التي اعتادها ، ويشاهد تغيّر لون يده ، وعودتها إلى لونها السابق ، وهذا المشهد بكل ما فيه من مواقف عجيبة معجزة يؤثر في المتابع الذي تسيطر عليه مشاعر متباينة ، ترسخ الإيمان في نفسه ، وتدفعه إلى الشعور بصعوبة الموقف الذي عاشه موسى (عليه الصلاة والسلام) في تلك اللحظات ، يضاف إلى ذلك أنه يتطلع إلى معرفة ما سيحدث بعد ذلك من أحداث .

وحضرت العصا للمرة الثانية أمام فرعون، حينما ألقاها موسى (عليه الصلاة والسلام) أمام السحرة ، ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُّثَبِّتٌ ﴿٣٣﴾ وَرَزَقَ بَدَهُ إِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٢﴾ (الشعراء : ٣٢ - ٣٣) .
 لقد تكرر الموقف السابق ، لكن هذه المرة كان أمام فرعون وسحرته ، فالمعجزتان حضرتا ، إذ تحولت العصا ثعباناً واضح المعالم غير منكر ، ويده السمراء أخرجها من جيبه بيضاء من غير سوء .

إن الاختلاف بين الموقفين اللذين حضرت فيهما العصا تمثل في المكان والزمان والظروف المحيطة . وكان موسى (عليه الصلاة والسلام) قد اكتسب الثقة من المرة الأولى التي تحولت فيها العصا إلى حية ، فتحول الخوف إلى إيمان وثقة بالله تعالى ، ومن هنا جابه فرعون وسحرته في المرة الثانية بثبات وقوة .

وفي المرة الثالثة حضرت العصا ، إذ أمر الله تعالى موسى (عليه الصلاة والسلام) أن يضرب بها البحر الذي انشقق بأمره تعالى ، ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالظُّلُمِ الْأَعْمَى ﴿٦٣﴾ (الشعراء : ٦٣) .

تطالعنا العصا مرة ثالثة في قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) ، لكن بصورة مختلفة ، ففي هذه المرة كانت هي الأداة التي شقّت البحر بأمر الله تعالى . وبذلك فإنها ستثير فضول المتابع وتشوّقه إلى معرفة سرها ، والكشف عن طبيعة حضورها القوي في الأحداث والمواقف التي تعرض لها كلّم الله (عليه الصلاة والسلام) .

(١) ينظر: نظرات في أحسن القصص: د. محمد السيد الوكيل: ٢ / ٢٦ - ٢٧ .



وفي المرة الرابعة فجرت عصا موسى (عليه الصلاة والسلام) العيون بأمر الله تعالى ،
﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَابًا أُمًّا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ آبَ صُرِبٍ بِعَصَاكَ
الْحَجَرِ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا
عَلَيْهِمُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿١٦﴾ (الأعراف: ١٦٠) .

أوحى الله تعالى إلى موسى (عليه الصلاة والسلام) أن يضرب الحجر بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا
عشرة عيناً ، وكان هذا هو الحضور الرابع للعصا المعجزة العجيبة الفريدة ، وهكذا توالى المعجزات
التي جعلها الله تعالى آيات أيد بها رسوله ، وسلطها على المعاندين والمنكرين والمكذبين .

خالفت العصا طبيعتها التي اعتدناها في الواقع بقدرة الله تعالى وتديبره ، وتحولت من
مجرد آلة لها استخدامات معهودة كما وصفها موسى (عليه الصلاة والسلام) ، وكما نعلم
عنها في الواقع ، كالتوكؤ عليها ، والهش على الغنم - إلى معجزة من المعجزات التي أيد الله
تعالى بها رسوله ، ومن جانب آخر كانت وسيلة جذب وتشويق وتأثير قوي في المطلع على
قصة موسى في القرآن الكريم ، فالمتابع يترقب ما سيحدث ، والأنفاس تحبس ، والمشاعر
تضطرب ، والدهشة والانبهار تحضر بقوة وتسيطر على المشاعر . وكان الإشفاق على كلیم
الله حاضرأ في الحضور الأول للعصا ، أما في المرات الأخرى فتحول الإشفاق إلى إعجاب بهذا
الرسول الذي يحمل عصا ، تأتمر بأمر الله تعالى ، وتفعل المعجزات بإذنه تعالى .

وفي قصة عيسى (عليه الصلاة والسلام) نطالع مجموعة من الأحداث المعجزة الخارقة
للعادة ولطبيعة الأشياء في مراحل مختلفة من حياته ، وهي في مجملها شكلت مجموعة من
دلائل الإعجاز التي خصه الله تعالى بها ، وأيده بها ، ومن تلك المعجزات أنه ولد من أم دون أب ،
وتكلم في المهد ،

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَرَبًّا مَّتْرَبِينَ ﴿١٧﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٨﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ
وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾

(آل عمران: ٤٥-٤٧) .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ﴿٢٢﴾ (مريم: ٢٩-٣٠) .

أشارت مريم إلى وليدها (عليه الصلاة والسلام) ليحبيب عن تساؤلهم ، وعدّوا ذلك منتهى السخرية والاستهزاء ، لكن معجزة الله تحققت فأجابهم ، ولم يكونوا " يتوقعون أن يتكلم صبي في المهد ، ونسوا أن الأمر كله خارق للعادة ، وأن حياة عيسى (عليه السلام) منذ حمله ، وحتى رفعه ، ليست كحياة البشر العاديين ، حيث خصه الله (عزّ وجل) بخصائص لم تتوافر لغيره من العالمين ...

إن حمل مريم بعيسى من غير أب خرق للعادة ، وكلامه وهو لا يزال في المهد خرق للعادة ، واختيار الكلمات التي نطق بها خرق للعادة ... »^(١) .

وفي قصة سليمان (عليه الصلاة والسلام) نجد مجموعة من المعجزات التي خصّه الله تعالى بها ، فقد منحه ملكاً عظيماً ، وسخر له الإنس والجن والطيور والرياح ، وعلمه منطق الطير ، **﴿ وَرَبِّتْ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْعَمِيمُ ﴾** **﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾** **﴿ حَتَّى إِذَا آتَى عَلَى وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكَكُمْ فَهِيَ لَكُمْ سُلَيْمَانٌ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾** **﴿ (النمل: ١٦ - ١٨) .**

لقد كان سليمان (عليه الصلاة والسلام) « يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ، ويعبّر للناس مقاصدها وإرادتها »^(٢) . وهذه المعجزة من الأمور التي تفرّد بها .

وكان (عليه الصلاة والسلام) يعرف - أيضاً - لغة النمل ، ففهم حديث النملة مع أمتها ، « وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره »^(٣) . وكان تسخير الجن له (عليه الصلاة والسلام) « معجزة من معجزاته ، ونعمة أنعم الله بها عليه دون سواه »^(٤) .

لقد جمع الله تعالى لسليمان (عليه الصلاة والسلام) بين الرسالة والملك ، ومنحه (عزّ وجل) من المعجزات التي لم ينلها غيره من الأنبياء والرسل ، وتلك المعجزات التي نطالعتها في قصته تعلق في القلوب ، وتستحوذ على المشاعر .

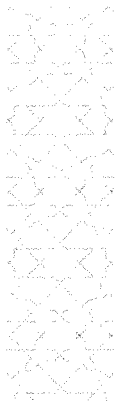
لقد عملت تلك المعجزات الخارقة للعادة ولطبيعة الأشياء على تأييد سليمان (عليه الصلاة والسلام) وتمكينه من فرض نفوذه وسلطانه على أتباعه ، وأسهمت في تحقيق الأغراض الدينية والدنيوية التي جاءت من أجلها ، ومن جانب آخر كانت وسيلة إثارة وتشويق

(١) نظرات في أحسن القصص: ٢ / ٢٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) قصص الأنبياء: ابن كثير: ٥٣٠ .

(٣) قصص الأنبياء: ٥٢٢ .

(٤) نظرات في أحسن القصص: ٢ / ٢٢٦ ، وينظر: سورة الأنبياء: ٨٢ ، وسبأ: ١٢ - ١٣ ، وص: ٣٧ .



وجذب للمتابعين الذين يقبلون على متابعة أحداث تلك القصة العجيبة الفريدة في موضوعها وطريقة عرضها ، فالمعجزات كانت وسيلة فنية ناجعة في البناء الفني للقصة، وبدأت جزءاً مهماً من أجزائها ، إذ أسهمت في بناء الحدث وتطويره ، ورسم الشخصيات ، وتصوير الجو العام الذي جرت فيه تلك الأحداث .

وإذا ما انتقلنا بالحديث إلى المعجزات المتعلقة بغير الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) فسنجد مجموعة من الأحداث منها حمل مريم بابنها عيسى من غير أب ، لقد عرضت الآيات القرآنية تلك القصة العجيبة ، والمعجزة الخارقة ، « فمريم العذراء تنجب طفلاً من غير أب ، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز ذلك الإعجاز ليظل أثراً للقدرة الإلهية ماثلاً أمام الأبصار يحمل عظمة الواحد القهار »^(١) .

وفي سورة الكهف نجد قصة الفتية أصحاب الكهف والرقيم الذين مكثوا في الكهف تسعاً وثلاثمئة سنة ، ﴿ وَاسْتَوُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴾ (الكهف : ٢٥) . وكذلك التدمير المفاجئ الذي حدث للجنيتين ، والأفعال الصادرة عن الرجل الصالح التي جاءت مخالفة لطبائع الأشياء ، وتمكين الله تعالى ذا القرنين من الملك .

إنّ الأحداث التي جاءت في سورة الكهف هي “ من الخوارق التي يعجز الإنسان عن تصورها في عالم الواقع ، إلا أن يكون له دين يصله بأسباب السماء ، فيضيف هذه الأحداث إلى قدرة الإله القادر رب العالمين ”^(٢) .

وهكذا كانت الحوادث المعجزة الخارقة للعادة ولمظاهر الحياة الطبيعية من منظور البشر سمة من سمات قصص القرآن الكريم التي كان لها أثر في منحها مزيداً من التشويق والإثارة ، بما تحمله من أحداث تثير انفعال المتابعين وتدهشهم ؛ يضاف إلى ذلك إسهامها إسهاماً كبيراً في تحقيق أهداف تلك القصص الدينية والتربوية .

* * *

(١) القصة في القرآن مقاصد الدين وقيم الفن : ٤١٦ . وينظر : (سورة مريم : ١٦ - ٢١) .

(٢) القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور : ٥٨ .

المبحث الثاني : تنوع الشخصيات :

الشخصية عنصر مهم من عناصر القصة ، فهي التي تقوم بالأحداث ، وهي المحور الذي يستقطب جل الاهتمام ، والعناصر القصصية الأخرى تكتسب أهميتها من خلال ارتباطها بها ، فالاهتمام بالمكان يرجع إلى الإنسان الذي يعيش فيه ، والاهتمام بالأفكار والمضمونات المطروحة مرده إلى الإنسان الذي صدرت عنه ، وهكذا الحال مع بقية العناصر .

والشخصية في القصة هي التي تبعث الحركة والحيوية فيها، وتجعلها تبدو صورة من صور الحياة الواقعية التي نحياها. وتنوع النماذج التي تُقدّم في القصة من العوامل التي تمنحها مزيداً من التشويق والجذب والإثارة والحيوية .

وقصص القرآن الكريم قدّمت نماذج متنوعة لعوالم مختلفة : فهناك عالم الإنس ، وعالم الملائكة ، وعالم الجن ، وعالم الحيوان .

وهذه النماذج مجتمعة شكلت عالماً متفرداً خلقه الله تعالى ؛ لتحقيق الأغراض الدينية والتربوية . وأروع ما في تلك القصص وأجله الخطاب الرباني « الذي يتجلى في حوار الله (عزّ وجل) مع بعض عباده ، ويبدو هذا في قصة آدم . وفي قصة إبراهيم وطلبه من الله (عزّ وجل) أن يريه كيف يحيي الموتى ، وفي تكليمه لموسى »^(١).

وبدأ ذي بدء ساقف عند الشخصيات البشرية أو شخصيات عالم الشهادة التي جاءت متنوعة ، فمنها : شخصيات الرسل والأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ، والرجال والنساء والأطفال ، ومنها – أيضاً – الصالحون والطالحون . وداخل هذه الشخصيات نجد شخصيات معينة محددة مذكورة بأسمائها وأوصافها ، وهي كثيرة . ومنها شخصيات تمثل نماذج بشرية عامة لم يحدد القرآن الكريم أسماءها ، كصاحب الجنيتين والفتية أصحاب الكهف والرفيم ، والعبد الصالح الذي صحبه موسى (عليه الصلاة والسلام) في سورة الكهف ، وغيرها من الشخصيات .

وتعدّ شخصيات الرسل والأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) من أبرز الشخصيات التي نطالعاها في قصص القرآن الكريم ، « وقد قصّ الله سبحانه في قرآنه قصص أربعة وعشرين رسولاً ، المتحدث في هذه القصص هو الله (عزّ وجل) ، والنبي هو بطل القصة ، وقومه هم بنية القصة ، والزمان في بطون التاريخ الغابر ، والهدف تقويم الاعوجاج الإنساني في العقيدة الدينية والأخلاق والسلوك وأنظمة الحياة »^(٢).

(١) خصائص القصة الإسلامية : ٧٥ .

(٢) القصة القرآنية (هداية وبيان) : د . وهبة الزحيلي : ١١ - ١٢ .

وقصص القرآن راعت في تقديم شخصيات الرسل والأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) طبيعتهم ، ففي شخصياتهم جانبان : « نبوي وفيه العصمة ، وهو مفهوم عقدي ، وبشري ذو حاجات ودوافع ، يعتره ما يعترى البشر من نسيان وخطأ وانفعال وغضب وخوف وتسرع »^(١) . وهذا التكامل في شخصية الأنبياء منحها بعداً إنسانياً عميقاً ، وجاذبية كبيرة ، وبالرغم من أنهم يشتركون في هذه الصفة - أعني بناء شخصياتهم على جانبين - إلا أن لكل نبي خصوصية تميزه من غيره ، ومعجزة تتفق مع طبيعة قومه ، فموسى (عليه الصلاة والسلام) كانت معجزته العصا التي برز بها خصومه ، وسليمان (عليه الصلاة والسلام) آتاه الله تعالى الملك وعلمه منطلق الطير وسخر له الجن والرياح ، ويوسف (عليه الصلاة والسلام) خصه الله تعالى بتأويل الرؤى ، ومحمد (عليه الصلاة والسلام) كان القرآن الكريم معجزته ، وهكذا الأمر مع بقية أنبياء الله (عليهم السلام أجمعين) .

وقصص القرآن لم تقتصر على تقديم شخصيات الأنبياء والرسل والشخصيات التي تمثل جانب الخير والفضيلة ، بل استكملت الصورة الواقعية للحياة التي تشمل الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، فكما قدمت شخصيات تمثل جانب الخير قدمت شخصيات تمثل الشر والرذيلة : كفرعون وهامان وقارون ، فجاءت تلك القصص الفريدة المعجزة معبرة أجمل ما يكون التعبير عن حقيقة النفس البشرية .

وذلك الحضور للشخصيات المتناقضة كان عامل تشويق وجذب للمتابع الذي يطالع حياة كاملة تشمل الخير والشر ، ويشهد صراعاً قوياً بين الشخصيات المتناقضة بما تحمل من رؤى وأفكار متناقضة ، ومن هنا يتعلق قلبه بما يشاهد ، ويحرص أشد الحرص على متابعة نتيجة ذلك الصراع المحتدم المتأجج الذي كانت المفارقة الجزئية والكلية في الشخصيات والمواقف وسيلة من وسائل تجسيده .

أما عالم الملائكة فكان لهم « حضور ومشاركة في قصة آدم وبعض مشاهد قصة مريم وزكريا ، ويتجسدون في صورة بشرية تخفى على إبراهيم فيظنهم بشراً ، كما حدث في قصة إبراهيم مع ضيفه من الملائكة الذين أرسلوا بالعذاب إلى قوم لوط ، وقصة مريم التي تمثل لها جبريل بشراً سويّاً »^(٢) . ومنهم - أيضاً - الخصمان اللذان تسورا المحراب في قصة داود (عليه الصلاة والسلام)^(٣) .

(١) بناء الشخصية في القصة القرآنية : د . مصطفى عليان : ٣٢ .

(٢) خصائص القصة الإسلامية : ٧٥ .

(٣) ينظر : سورة ص : (٢١ - ٢٤) .

وهناك عالم الجن الذين كان لهم حضور في بعض قصص القرآن الكريم بصور مختلفة ، ففي قصة سليمان (عليه الصلاة والسلام) كانوا من الجنود الذين سخرهم الله تعالى لخدمته، ﴿ وَحِشْرَ لَشَيْئَانٍ جُونُودَهُ مِنْ إِلَهِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (النمل : ١٧) .

سخر الله تعالى الجن لسليمان (عليه الصلاة والسلام) ، فكانوا يأترون بأمره ، وينفذون ما يأمرهم به ، ونجد ذلك في طلبه منهم أن يأتوا بعرش ملكة سبأ ، وظهر تفاوت قدراتهم ، إذ عرض عليه أحدهم أن يأتيه به قبل أن يقوم من مقامه ، أما الآخر - الذي عنده علم من الكتاب - فأخبره بأنه يستطيع أن يأتيه به قبل أن يرتد إليه طرفه ^(١) .

ومن صور حضور الجن الأخرى في قصص القرآن وسوسة الشيطان للإنسان ، ومن ذلك ما نجده في قصة آدم (عليه الصلاة والسلام) ، ﴿ فَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ يَثْبِقِي هُنَا مَا أُرَى عَنْهُمَا مِنْ سَوْءٍ بَيْنَهُمَا وَقَالَ مَا مَنَّكَ رَبُّكَمَا عَلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْغَالِبِينَ ﴾ (الأعراف : ٢٠) .

في الآية السابقة وسوس الشيطان لآدم وحواء (عليهما السلام) فأكلا من الشجرة فأخرجهما الله تعالى من الجنة ، وبذلك تمكن " الشيطان بخبثه ودهائه ، مستعيناً بوسائل الإغراء النفسي والجنسي أن يجعل آدم يأكل من الشجرة ، وبرغم التحذير الرباني الصريح ، وبرغم ما قدّم لآدم من المباحات التي كان فيها كل الغناء عن الأكل من الشجرة ، برغم هذا كله أكل آدم من الشجرة " ^(٢) .

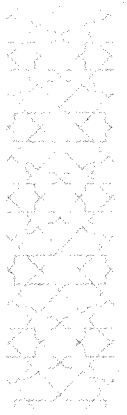
وفي موضع آخر من قصة آدم (عليه والسلام) نطالع صورة مختلفة لحضور الجن تمثلت في رفض إبليس السجود لآدم ، بحجة أنه خير منه ، ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (١١) قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (١٢) (الأعراف : ١١ - ١٢) .

في الموقف السابق مثل إبليس أنموذج التكبر والعناد والجدل ، حتى إنه رفض أمر الله تعالى ، واحتج على قضائه ، فطرده الله تعالى من الجنة .

أما عالم الحيوان فكان له حضور لافت في بعض قصص القرآن الكريم ، فهناك النملة والهدد في قصة سليمان (عليه الصلاة والسلام) ، والغراب في قصة ابني آدم ، والكلب في قصة أصحاب الكهف ، والحوث في قصة يونس ، والعجل في قصة موسى ، وغيرها من الحيوانات التي وردت في قصص القرآن الكريم .

(١) ينظر: سورة النمل: (٣٨ - ٤٠) .

(٢) نظرات في أحسن القصص: ٢١/١ .



وأشير هنا إلى أن كل «حيوان جاء ذكره في القرآن الكريم هو حيوان حقيقي، يُمثل ذات الحيوان الذي ورد ذكره في القصص القرآني. فالنملة التي حذرت جماعة النمل من أن يحطمها موكب سليمان (عليه السلام) هي نملة حقيقية سمع سليمان حديثها إلى جماعة النمل، وعرف مقالها لتلك الجماعة. وكذلك الهدهد الذي تخلف عن أن يأخذ مكانه بين الحشود الحاشدة بين يدي سليمان (عليه السلام) هو هذا الهدهد الذي تهدده سليمان بالعذاب، أو الذبح؛ لتخلفه عن شهود هذا الحشد، وهو الهدهد الذي دلَّ سليمان على مملكة سبأ... وهذا الشأن في كلب أصحاب الكهف الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، محسوباً من أصحاب الكهف، معدوداً كواحد منهم»^(١).

وفي قصة آدم يبرز الغراب الذي بعثه الله تعالى ليعلم قابيل كيف يدفن أخاه. **﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ قَبَعَتْ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَ سَوْءَةٍ أَجِيءُ قَالَ يَتَوَلَّوْا عَجَبْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِثُ سَوْءَةً أَجِيءُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٣١﴾﴾** (المائدة: ٣٠-٣١).

قَتَلَ قابيل أخاه هابيل كانت أول جريمة ترتكب على الأرض، وكان هابيل أول ميت، فجهل قابيل طريقة الدفن، فحمله على ظهره سنة، وقيل مئة سنة، ولم يزل كذلك حتى بعث الله تعالى غرابين أعادا مشهد قتل الأخ أخاه، إذ قتل أحد الغرابين الآخر، ثم حفر حفرة ووضع فيها الغراب المقتول، ففعل قابيل الفعل نفسه، وندم ندماً شديداً^(٢).

وفي قصة يوسف (عليه الصلاة والسلام) كان الذئب من أشخاص القصة، لكنه في الواقع «لم يصدر عنه فعل، ولم يبدُ على مسرح الأحداث، وهو كذلك في مشاهد القصة، لا تراه إلا سماعاً على لسان الأب؛ تعليلاً لخوفه على يوسف، وعلى لسان الإخوة في اتهامهم إياه بافتراس يوسف، ثم يختفي هذا الشخص بعد ذلك تماماً، ولا يرد عنه حديث، أي حديث»^(٣). ويمكن إرجاع تعدد أنماط الشخصية في قصص القرآن وتنوع نماذجها إلى «أن موضوعات القصص القرآني متعددة، وأغراضه متباينة، فقد اشتمل القصص القرآني جميع أوجه الحياة بكامل جوانبها: الدينية والسياسية والاجتماعية»^(٤).

(١) القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور: ١٠-١١.
(٢) ينظر: قصص الأنبياء: ٥٣. ونظرات في أحسن القصص: ٥٤ / ١ - ٥٧.
(٣) البيان القصصي في القرآن الكريم: ٩٢.
(٤) الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني: د. عبد المرضي زكريا: ١٤٧.

وهكذا كان تنوع الشخصيات في قصص القرآن الكريم من العوامل التي منحت تلك القصص مزيداً من التشويق والجاذبية والإثارة والمتعة . فالمتابع لتلك الشخصيات ينتقل إلى عوالم مليئة بالإدهاش والإبهار، ويقف مذهولاً أمام هذا التنوع المعجز في الشخصيات القصصية المتنوعة التي تنتمي إلى عوالم مختلفة ؛ مما يؤدي إلى تعلق قلوب المتابعين لحركة الشخصيات وتقلب أحوالهم ، بحثاً عن المصير الذي سيؤولون إليه ، وهذا كله مما يزيد إيمان المؤمنين بالله تعالى ، ويصيب في الوقت ذاته غير المؤمنين بالحيرة والحسرة والاضطراب والخوف ؛ لأنهم سيعلمون أنّ وراء ذلك كله خالقاً كفروا به .

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن الجمع في بعض قصص القرآن الكريم بين العوالم المختلفة في قصة واحدة ، وأحياناً في مشهد واحد - منحها مزيداً من الجاذبية والتشويق والإثارة ، ونجد ذلك متحققاً في قصة سليمان (عليه الصلاة والسلام) ، إذ جمعت القصة في مشهد واحد بين سليمان والجن والهدهد ، ثم حضرت ملكة سبأ ، وفي القصة نفسها في مشهد آخر حضر النمل^(١) . وكان لهذا الحضور المتنوع لشخصيات مختلفة تمثل عوالم مختلفة أثره في تعلق القلوب وانبهارها بقدرة الله تعالى على الجمع بين هذه العوالم المختلفة، التي لا يمكن مشاهدتها بالصورة الفريدة المعجزة إلا في قصص القرآن الكريم ، فكل شخصية من الشخصيات لها دورها الذي أدته كما أرادته الله تعالى ورسمه لها .

* * *

(١) ينظر : سورة النمل : (١٧ - ٤٤) .

المبحث الثالث : عنصر المفاجأة :

عنصر المفاجأة من العناصر الفنية في القصة التي إذا ما وظفها القاص بالصورة الفنية المناسبة فإنه يستحوذ على قلب القارئ، ويجدد نشاطه، ويشد انتباهه، ويحرضه على متابعة الأحداث القصصية التي تتخذ مساراً جديداً مختلفاً حافلاً بالحيوية والحركة والتشويق والإثارة؛ مما يسهم في كسر رتابة سرد الأحداث القصصية، ودفعها إلى منحى جديد .
وفقدان القصة - أي قصة - عنصر المفاجأة يعدّ مؤشراً على ضعفها فنياً؛ مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى دفع القارئ إلى ترك مواصلة قراءتها، أو قلة الاهتمام أثناء متابعة أحداثها .

وفي قصص القرآن الكريم تعدّ المفاجأة عنصراً فنياً من العناصر التي تحقق التشويق والإثارة . وهي من السمات الفنية التي يتسم بها الأسلوب القصصي القرآني المؤثر المشوق « بما يتخلله من مفاجآت تكون كالهزات العنيفة التي تثير الانتباه وتذكي الشوق إلى متابعة القصة »^(١) .

وقصص القرآن الكريم « لا تسيّر على نظام واحد في تقديم الحدث المفاجئ الذي يسهم في النهاية ويحرك القصة إلى حل عقدها الرئيسية، ولكنها تراعي المكان والزمان المناسبين لإظهار المفاجأة، فتقدمها فيها محافظة بذلك على القيمة الفنية المعجزة التي يقوم عليها البيان القرآني في عمومها »^(٢) .

ومن طرق المفاجآت الفنية في قصص القرآن الكريم وجود سر من الأسرار يخفى عن بعض الشخصيات القصصية، ويكشف في نهاية المطاف^(٣)، كما في قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) مع العبد الصالح^(٤)، إذ تلاحقت المفاجآت التي غاب كنهها عن موسى (عليه الصلاة والسلام) والمتابعين للقصة، وفي النهاية يكشف العبد الصالح عن سر الأفعال الصادرة عنه التي كانت محل استغراب موسى والمتابعين للقصة، فخرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار دون أجر، أعمال قام بها العبد الصالح، أثارت استغراب موسى واستنكاره، وفي الوقت ذاته أثارت القارئ وشوقته لمعرفة حقيقة تلك الأفعال . وبذلك تحقق عنصر التشويق في القصة من خلال مجموعة من الأسرار التي تكشف في نهاية القصة . فالقرآن

(١) أسلوب الدعوة القرآنية : بلاغة ومنهاجاً : د . عبد الغني محمد سعد بركة : ٣٠٣ .

(٢) البيان القصصي في القرآن الكريم : ١٣٦ .

(٣) ينظر : التصوير الفني في القرآن : سيد قطب : ١٨٣ .

(٤) ينظر : سورة الكهف : ٦٠ - ٨٢ .

الكريم في قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) مع العبد الصالح « يسرد المفاجآت من رجل غامض ، ليرهاها نبي مندهش ، لإبراز حكمة إلهية عليا »^(١) .

لقد أضفت المفاجآت المتلاحقة الكامنة في قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) مع العبد الصالح - جَوْأً من التشويق والإثارة على القصة ، فالقارئ يتابع بشغف وشوق الأحداث القصصية ، وكله تطلع لمعرفة ما ستسفر عنه تلك المواقف ، فموسى (عليه الصلاة والسلام) يتصرف وفق طبيعته البشرية التي تقف عاجزة عن قبول أعمال العبد الصالح ، لكن الدهشة والحيرة تزول بعد كشف حقيقة الأمر .

ونجد ذلك - أيضاً - في قصة سليمان (عليه الصلاة والسلام) مع ملكة سبأ التي دُهِشت حينما رأت عرشها الذي تركته في مملكتها في بلاط سليمان ، بعد أن تم تنكيهه ، فما كان منها إلا أن سألت إن كان المائل أمامها هو عرشها الذي خلفته في مملكتها ، « وكان السؤال نتيجة طبيعية للدهشة الفورية التي صاحبت المفاجأة ، مفاجأة أن ترى عرشاً كأنه عرشها »^(٢) .

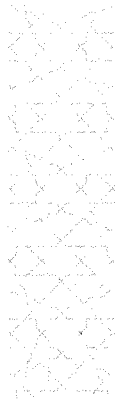
وسر العرش في القصة كشف لبعض النظارة وهم سليمان (عليه الصلاة والسلام) ومن كان في مجلسه وللمتابعين ، لكنه خفي عن ملكة سبأ التي ظلت تجهل ما علم غيرها^(٣) . في القصتين السابقتين تحققت المفاجأة من خلال وجود سر يكشف في نهاية المطاف ، مما يضيف على الأحداث القصصية مزيداً من التشويق والإثارة ، فالمتابع يبحث عن كشف حقيقة تلك الأسرار ، فيعيش حالة من الترقب ، حتى عندما يكون المتابع على علم بالسر ، فإنه يصبو إلى معرفة ردة فعل الشخصيات أو الأطراف التي كُتم عنها السر إزاء تلك الأحداث .

ومن صور المفاجآت في قصص القرآن الكريم تقديم حدث مفاجئ يسهم في قلب مسار الأحداث القصصية ، واتخاذها مساراً آخر مختلفاً ، مما يؤدي إلى إضفاء مزيد من الإثارة والتشويق على الأحداث القصصية ، ومن ذلك ما نطالعه من أحداث مفاجئة في قصة يوسف (عليه الصلاة والسلام) ، والحدث المفاجئ الأول تمثل في ظهور العزيز فجأة أمام زوجه ويوسف (عليه الصلاة والسلام) ، ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصُومُ ، مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جِئْتُمْ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (يوسف : ٢٥) .

(١) القصة في القرآن (مقاصد الدين وقيم الفن) : ٣٠٤ .

(٢) نظرات في قصص القرآن : ٦٩ - ٧٠ .

(٣) ينظر : التصوير الفني في القرآن : ١٨٦ - ١٨٧ .



جسدت الآية السابقة موقف امرأة العزيز التي راودت فتاها الذي تربى في بيتها عن نفسها ، بعد أن تهيأت له ، لكن المفاجأة القوية تحققت من خلال ظهور زوجها أمامها فجأة ، فما كان منها إلا أن اتهمت يوسف العفيف بمراودتها عن نفسها ؛ لإبعاد التهمة عنها ، وهكذا “ فقد ألقت التهمة جميعها على يوسف في سرعة خاطفة . فلم يقل القرآن فكَرَّت ماذا تفعل ، أو حاولت في أمرها وأمر ذلك الرجل معها . لم يقل شيئاً من هذا ، وإنما صك النفوس بالتهمة في مفاجأة فنية مذهلة . وتمضي القصة بعد ذلك في فنية بارعة ، وفي إيجاز أعجب ”^(١) .

والملاحظ أن الحدث المفاجئ الثاني جاء مباشرة بعد الحدث الأول ، وتمثل في محاولة امرأة العزيز لإصاق التهمة بيوسف (عليه الصلاة والسلام) وتبرئة نفسها أمام زوجها ، فيوسف لم يكذب يفيق من هول المفاجأة الأولى ، وهي فعل المرادة ، إلا ووجد نفسه أمام مفاجأة أخرى ، وهي قلب الحقيقة . وهذا الجو المشحون بالمفاجآت أضفى على الجو العام للقصة مزيداً من التشويق والإثارة .

وفي القصة ذاتها نجد المفاجأة تبرز مرة أخرى من خلال حدث استخراج يوسف (عليه الصلاة والسلام) السقاية من رحل أخيه ، وكان لهذه الحدث المفاجئ وقعه على الإخوة ، ﴿ **بَدَأَ يَا وَيْلَتَهُمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾** ﴿ **قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ، وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾** ﴾ (يوسف : ٧٦ - ٧٧) .

كان موقف الإخوة من المفاجأة التي حدثت غير مستغرب منهم ، فلم يدافعوا عن أخيهم ، وبنفوا عنه التهمة ، بل ألصقوها به . فإخوة يوسف (عليه الصلاة والسلام) مازالوا في غيهم القديم ، ولم يتغيروا ، على الرغم من مرور الزمن ، وظنهم أنه قد مات منذ أقوه في البئر ، فهم مازالوا يغارون منه ويحقدون عليه .

لقد كانت تلك الحادثة بمثابة المفاجأة الفنية التي غيرت مسار الأحداث تماماً ، ودفعتها إلى الاقتراب من النهاية ، فيوسف أبقى أخاه عنده ؛ لكي يحضر والده يعقوب (عليهما الصلاة والسلام) ، وبهذا يجتمع شمل الأسرة مرة أخرى .

وفي قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) نجد حدثاً مفاجئاً وقع بعد عودة موسى من مواعده مع الله تعالى ، إذ وجد قومه يعبدون العجل الذي صاغه السامري من الذهب ، فغضب غضباً شديداً

(١) السرد القصصي في القرآن الكريم : ثروت أباطة : ٢٧ .

من فعلتهم تلك، ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ لِمَ بَعَدَكُمْ رَبِّيكُمْ وَعَدَا حَسَنًا أَفْطَالَ
عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّيكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ (طه: ٨٦).

كانت مفاجأة قوية لموسى (عليه الصلاة والسلام) عندما رأى قومه على تلك الحالة، فما كان منه إلا أن ألقى الألواح التي كان يحملها، وأخذ برأس أخيه هارون ولحيته (عليهما الصلاة والسلام) ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ (طه: ٩٤).

وهكذا برز عنصر المفاجأة في قصص القرآن الكريم بوصفه عنصراً فنياً من عناصر تشويق المتابعين وجذبهم إلى متابعة أحداث القصص، من خلال مفاجأتهم بمواقف وأحداث غير متوقعة، لكنها تجيء في سياقها محققة الحكمة الإلهية التي سبقت من أجلها.

* * *

المبحث الرابع : براعة التصوير :

أسلوب التصوير من أبرز الأساليب التي تستثمرها قصص القرآن الكريم في تقديم مشاهد معبرة عن المواقف والأحداث والشخصيات والأماكن أبرد ما يكون التعبير، وهو سمة فنية من سمات قصص القرآن الذي يتخذ من ألوان التصوير ما يتناسب مع موضوع القصة وغاياتها ؛ لذا نجد تنوعاً في ألوان التصوير في قصص القرآن الكريم ، فهناك تصوير بالحركة واللون والوصف والحوار والجرس وغيرها من ألوان التصوير الحافلة بها تلك القصص .

والتصوير « هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشاهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية. فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيوردها شاخصة حاضرة فيها الحياة وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل ؛ فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلى ، ومثل يُضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع ... »^(١) .

فأسلوب التصوير في قصص القرآن الكريم يعمل على تقديم مشاهد مختلفة تنبض بالحيوية والحركة ، في صورة حسية ماثلة أمام المتلقين ، فيبدو المشهد حاضراً في اللحظة نفسها، وتبدو الشخصية القصصية نابضة بالحركة والحيوية .

وهكذا فإن أسلوب التصوير يجعل من القصص القرآني « أداة فعالة ومؤثرة في جماهير المتلقين للعمل الفني ، كما ينشئ علاقة إيجابية بين محور العمل وعناصره وأحداثه وبين السامع أو القارئ لما يتضمنه التصوير الجمالي من حركة متدفقة تبعث الحياة فيما يُسمع أو يُقرأ من القصة . والتصوير الجمالي الحي يشيع جوّاً من الحياة في ثنايا القصة ، بحيث تنطلق الأخيلة وتتتابع الصور على الأذهان ... »^(٢) .

(١) التصوير الفني في القرآن : ٣٦ .

(٢) القصة في القرآن (مقاصد الدين وقيم الفن) : ٣٣ .

وبهذا كان التصوير في قصص القرآن أسلوباً فنياً مؤثراً في المتلقين ، وموصلاً إلى تحقيق الأغراض الدينية والتربوية أروع ما يكون التحقيق ، بما يحدثه من تشويق وجذب للمتلقين الذي يقفون مبهورين من براعة التصوير المتمثلة في تقديم مشاهد حية نابضة بالحركة والحيوية ، وشخصيات قصصية جاذبة ومؤثرة ومعبرة عن مقاصد قصص القرآن الكريم أجمل ما يكون التعبير .

والنماذج المعبرة عن براعة التصوير في قصص القرآن الكريم أكثر من أن تحصى ، وفي هذا المقام سأقف عند بعضها ، ومنها الوصف الدقيق للكهف والفتية في قصة أصحاب الكهف ، فقد أبدع القرآن الكريم في وصف ذلك الكهف العجيب ، ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ ، وَإِنَّا مُرْسِدُونَ ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَنِي سَطْرٍ بِأَنْعَامِهِمْ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلَمِّتَ مِنْهُمْ رُجْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الكهف : ١٧ - ١٨) .

لقد هيا الله تعالى الكهف لمكث الفتية تلك المدة الزمنية الطويلة ، فالشمس تميل عنهم يمينا عند شروقها ، وشمالاً عند غروبها ، فلا تحرقهم الشمس ، وكذلك جعلهم الله لا يمكثون على حالة واحدة ، فكان الله تعالى يقلبهم في نومهم ذات اليمين وذات الشمال ، حتى لا تأكلهم الأرض ، وهم - أيضاً- في مكان واسع منفتح لا تدخله حرارة الشمس ، وكان وجود الكلب - في مدخل الكهف - باسطاً ذراعيه كأنه يقوم بعملية الحراسة ^(١) ، لقد كان « منظرهم يثير الدهشة ، فهم نيام كالموتى ، ولكنهم أيقاظ ، وهم يتحركون قلباً من جنب إلى جنب ولا يستيقظون ، إن ذلك كله من تدبير الله .

إن المسرح بكل ما فيه من وسائل تعبيرية ، يكاد يعجز عن تصوير الحركة المتموجة ، حركة الشمس وهي تزاور عن الكهف عند مطلعها فلا تضيئه ، وتتجاوزهم عند مغيبها فلا تقع عليهم ، إن أسباب الحياة مهياً لهم وهم رقود . «إن لفظ (تزاور) تصور مدلولها ، وتلقي ظل الإرادة في عملها» ^(٢) .

في الآيتين السابقتين صور القرآن الكريم تصويراً رائعاً ذلك الكهف العجيب ، وحال الفتية داخله ، إذ سيجد المتأمل تلك الصورة العجيبة ماثلة أمام عينيه ، حاضرة بصورة موحية ، معبرة عن قدرة الله تعالى الخالق المدبر .

(١) ينظر : القصة في القرآن (مقاصد الدين وقيم الفن) : ٢٥٢ - ٢٥٣ . والبيان القصصي في القرآن : ٢٣ .

(٢) القصة في القرآن (مقاصد الدين وقيم الفن) : ٢٥٢ .

ونقل القرآن الكريم بالكلمات هيئة أولئك الفتية في مشهد تصويري ، أضفت عليه صيغة المضارع معنى الإحظار والتجدد^(١) ، من خلال استعمال الأفعال المضارعة (وترى ، وتحسبهم ، وتقلبهم) .

ومن ذلك - أيضاً- استحضار مشهد هلاك الطاغية فرعون ومن معه من القوم الكافرين ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَجْنَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الشعراء: ٦٣- ٦٦) .

جسدت الآيات السابقة مشهد انفلاق البحر، ونجاة موسى (عليه الصلاة والسلام) ومن معه من المؤمنين ، وغرق فرعون ومن معه من الكافرين ، بحيث يطالع المتابع مشهداً تاماً معبراً عن نهاية طاغية . لقد تمثل المشهد السابق في نبي مطارده من قبل طاغية ، ووصل البحر ، والطاغية خلفه ، فأوشك النبي على الهلاك ، لكن مشيئة الله وإرادته تدخلت في الموقف ، فأمر رسوله بضرب البحر بعصاه الحاضرة معه في مواقف عدة ، فانفلق البحر ، استجابة لإرادة المولى تعالى ، فنجا موسى (عليه الصلاة والسلام) وقومه ، وهلك الطاغية وقومه .

صور القرآن الكريم ذلك المشهد تصويراً بارعاً موجزاً ، زاد من هيئته الحضور الإلهي من خلال الإيحاء إلى موسى (عليه الصلاة والسلام) بضرب البحر بالعصا ، ففي المشهد السابق أمر إلهي ورسول وطاغية وعصا عجيبة وبحر ينقسم قسمين ، كل قسم كان كالجبل ، ونجاة لقوم ، وهلاك لقوم آخرين . والقصة صورت كل هذا بكلمات موجزة تعدُّ آية من آيات الإعجاز والبيان .

وفي موضع آخر صوّر القرآن الكريم حال الطاغية فرعون ساعة هلاكه ﴿ وَجَوْرْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ مَا مَتُّ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءالْقَنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ (يونس : ٩٠- ٩١) .

في الآيتين السابقتين تصوير مشهد غرق فرعون الذي بادر بإعلان إيمانه عندما أدركه الغرق ، لكن إيمانه في تلك اللحظة كان بعد فوات الأوان ! فهو إيمان المضطر ، وكانت عاقبته نتيجة حتمية لظغيانه وظلمه ، وقد استحضرت الآيتان السابقتان المشهد بصورة موجزة موحية مؤثرة مشوقة .

(١) ينظر : سيكولوجية القصة في القرآن : د . التهامي نقرة : ٨٩ .

صورت القصة القرآنية ذلك المشهد تصوير حافلاً بالحيوية والحركة والتشويق، فالمتابعون لحركة الهروب الكبير الذي قاده موسى (عليه الصلاة والسلام) من بطش فرعون، والمطاردة الكبيرة من قبل الطاغية فرعون - يعيشون مع المشهد في تلك القصة بكل تفاصيلها، فرحين بنجاة رسول الله، وهلاك الطاغية، مما يعمق من إيمان المؤمنين بالله تعالى، أما الطغاة في كل عصر فتعلق تلك النهاية المأسوية بهم، وتظل تطل برأسها، تذكرهم بنهاية كل ظالم جبار!

وفي سورة هود يطالعنا مشهد ركوب نوح (عليه الصلاة والسلام) الفلك ومن معه، وغرق الأرض، وطلب نوح من ابنه الركوب معه في الفلك، لكنه يأبى، بزعم أنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء. ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبُهَا وَإِطِيعُوا أَمْرًا وَعَصُوا نَهْيًا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ ابْنُكَ أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَوِّئَ إِلَيَّ جَبَلٌ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (هود: ٤١-٤٣).

صوّر القرآن الكريم مشهد ارتفاع الماء ارتفاعاً عظيماً، حتى غطى قمم الجبال، والسفينة تسير وسط هذه المياه كالجبل، وفي هذه الأثناء تبرز عاطفة الأبوة، فنجد نوحاً (عليه الصلاة والسلام) يدعو ابنه إلى الركوب معه في السفينة، لكن العناد والشقاوة والجهل يغلب عليه، فظن أن الجبل سيعصمه من قضاء الله تعالى، فذكره الأب بأنه لا عاصم اليوم من قضاء الله تعالى. وهذه المشاعر الإنسانية المتباينة والمواقف العظيمة جسدتها وصورتها القصة القرآنية بصورة محسوسة، بحيث تبدو ماثلة أمام المتابعين، كأنها لوحة فنية أو مشهد ماثل أمام النظارة.

وفي سورة يوسف يبدع القرآن الكريم في تصوير مشهد مراودة امرأة العزيز يوسف (عليه الصلاة والسلام). ﴿وَأَسْتَبْعَا أَبَا بَاقٍ وَقَدَّتْ قَيْصُومَ، مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيْدَهَا لِدَا آتِيَابٍ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ يُعَذَّبَ أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ زَوَّجْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصُومَ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَيْصُومَ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَيْصُومَ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (يوسف: ٢٥-٢٩).

صوّرت القصة القرآنية في الآيات السابقة مشهداً من مشاهد الضعف البشري، يتمثل في مراودة امرأة العزيز فتاها (يوسف) عن نفسه، فقد تهيات له، وراودته عن نفسه، فحاول

الفرار منها ، واستبقا الباب ، فقدت قميصه من دبر ، لكنه تمكن من الإفلات منها ، فظهر فجأة الزوج ؛ ليجد زوجته والفتى الذي رباه في بيته ، وعامله كابنه على تلك الحال !
 تطالع في الآيات السابقة مشهداً تاماً صوره القرآن ببراعة ، بحيث يمكن للمتابع عندما يحاول أن يتخيل ذلك المشهد أن يراه كأنه لوحة مسرحية تمثل أمام عينيه - إن صح هذا التعبير - فالكلمات نقلت تلك الصورة من صورة معنوية إلى صورة حسية تنبض بالحركة والحيوية ، فتحبس أنفاس المتابعين ، ويظلون مشدودين لمتابعة ذلك الموقف الذي يمثل جانب من جوانب النفس البشرية ، الذي صورته القصة القرآنية بصورة نظيفة موحية ، بعيدة كل البعد عن إثارة الغرائز كما نجده في كثير من قصصنا المعاصرة .

ومن صور براعة التصوير في قصص القرآن الكريم تصوير الشخصيات القصصية ، ومن نماذج ذلك ما جاء في سورة المدثر من وصف للوليد بن المغيرة ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝۱۱ وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا مَمْدُودًا ۝۱۲ وَبَيْنَ شُهُودًا ۝۱۳ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝۱۴ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝۱۵ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ۝۱۶ سَاءَ زُجُجُهُمْ صَعُودًا ۝۱۷ إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَفَدَّرَ ۝۱۸ فَقِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ۝۱۹ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ۝۲۰ ثُمَّ نَظَرَ ۝۲۱ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝۲۲ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝۲۳ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝۲۴ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝۲۵ ﴾ (المدثر: ۱۱ - ۲۵) .

نزلت الآيات السابقة في الوليد بن المغيرة المخزومي الذي قال لبني مخزوم بعد استماعه للقرآن الكريم : « والله لقد سمعت من محمد أنفأ كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ؛ فقالت قريش : صبا والله الوليد ، والله لتصبأن قريش كاهم ؛ فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فقعد إليه حزياً وكلمه بما أحماه ، فقام فاتأهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه بخنق ؟ وتقولون إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر ، فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه وما الذي يقوله إلا سحر يأتريه عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادي فرحاً ، وتفرقوا معجبين متعجبين منه » (١) .

استمع الوليد إلى القرآن الكريم ، وعلم أنه الحق ، فوصف بلاغته وفصاحته ، فخشيت قريش أن يسلم فتسلم قريش ، فطلب منه أبو جهل أن يقول في القرآن كلاماً غير الذي قال ، فاستجاب له ووصف القرآن الكريم بأنه قول ساحر .

(١) الكشاف: ٤/ ٦٢٦ .

قدّم القرآن الكريم تصويراً بديعاً لحال الوليد في أثناء بحثه عن كذبة يقولها في القرآن الكريم . والمتدبر للآيات التي تصفه ستقفز أمامه صورته وهو على تلك الحال ، فكان يبحث عن كذبة يقولها ليرضي قومه ، وهو يعلم أنه يكذب وهم يعلمون كذبه ، لكنه العناد ، فهياً نفسه ، وأرهقها في التفكير .

وبعد أن وجد ما يقوله في القرآن الكريم ؛ لإرضاء قريش ، نظر في وجوه الناس نظرة المتكبر المتغطرس ، بعد أن أعرض عن الحق الذي علمه واستكبر عن قبوله ^(١) . وهكذا قدّمت القصة القرآنية تصويراً دقيقاً لمشاعر الوليد التي سيطر عليها العناد والاستكبار ، واتسمت الصورة بالحركة والحيوية ، فبدت صورته أشبه ما تكون باللوحة الفنية المعبرة بجلاء عنه ، والمتدبر للآيات القرآنية تدبراً حقيقياً ، فإن صورة الوليد في تلك اللحظة ستقفز أمام عينيه ماثلة حاضرة معبرة عن العناد والاستكبار والكذب .

وهكذا بدأ أسلوب قصص القرآن الكريم في تصوير المشاهد والمواقف والشخصيات واستحضرها وسيلة ناجعة جمعت بين تحقيق المقاصد الدينية والتربوية لتلك القصص ، وبين إحداث الأثر المطلوب لدى المتلقين الذي يتابعون أحداث تلك القصص متشوقين إلى معرفة ما ستؤول إليها ، ومبهورين من براعة القرآن الكريم في تصوير تلك المواقف والشخصيات بتلك الصورة الفنية المشوقة الجاذبة المؤثرة التي تبهر المتابعين وتدهشهم .

* * *

(١) ينظر : الكشاف : ٤ / ٦٣٦ - ٦٣٧ .

المبحث الخامس : فنية الحوار :

الحوار عنصر من العناصر الفنية المهمة التي تشكل أسلوب القصة ، وكثيراً ما يكون الحوار السلس المتقن مصدراً من أهم مصادر المتعة في القصة ، وبواسطته تتصل شخصيات القصة بعضها ببعض الآخر ، اتصالاً صريحاً مباشراً ، وبهذه الوسيلة تبدو لنا وكأنها تظلمح حقاً بتمثيل مسرحية الحياة «^(١) .

ومن وظائف الحوار القصصي الكشف عن جوانب خفية في الشخصيات ، وتطوير الأحداث ، وتوضيح فكرة القاص ، وتحقيق أهدافه ، والكشف عن الصراعات ، وإكمال بعض الجوانب التي لم يستحضرها السرد والوصف .

ومن أهم الشروط التي ينبغي أن تتوافر في الحوار أن يكون سلساً رشيقاً موجزاً ، يتفق مع طبيعية شخصية المتحدث من مختلف الجوانب .

وفي قصص القرآن الكريم كان الحوار من العناصر الفنية المهمة « فهو الذي يبعث الحياة والحركة في الحدث ، ويؤدي إلى الهدف ، ويظهر المغزى ، ويكشف عن مدى الصراع في المواقف المتغيرة ... كما أنه يترجم عن الشخصية ، ويستبطن انفعالاتها وأزماتها ، ويضعها في إطار نفسي معين ، ويزج القارئ في تجربة القصة ليعيشها ، وتنقله من عالمه إلى عالمها ... »^(٢) .

ويسهم الحوار - أيضاً - في الكشف عن جوانب خفية في حياة الشخصيات ، والتعبير عن مواقفها إزاء الأحداث المختلفة ، ويعمل على تطوير الأحداث القصصية ، ويلون الأسلوب القصصي ، ويثري الجدل ، ويبعث الحياة في المشاهد والمواقف المرسومة ، وغيرها من الوظائف الفنية والموضوعية التي أكسبت الحوار أهمية في بناء تلك القصص ؛ وبهذا كان الحوار وسيلة ناجعة من وسائل قصص القرآن الكريم في تحقيق الأهداف العقيدية والتربوية . ويؤكد ذلك اعتماد القصص القرآني على أسلوب الحوار بصورة واضحة تلفت نظر المتابعين . ويعتد الحوار أسلوباً من أساليب التشويق في قصص القرآن الكريم المتعددة ، فهو من العناصر التي تشدنا إليه ، فالتلون والتنوع في الأسلوب ، والانتقال من شخصية إلى أخرى أو أكثر ، وتدافع الآراء والأفكار - يمنح تلك القصص تشويقاً وحركة وحيوية ، ويثير انفعالات المتلقي ، ويجعله أكثر تحفزاً وتشوقاً لتلقي الأحداث ، ومتابعة مصير الشخصيات المختلفة^(٣) .

(١) فن القصة : ١١٧ .

(٢) سيكولوجية القصة في القرآن : ٤١١ .

(٣) ينظر : الحوار القرآني بين التفسير والتبصير : أحمد سنبل : ٩ - ١٠ . والحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني : ٤٥ . والقصص القرآني في منطوقه ومفهومه : ١١٩ - ١٢٣ .

ومن العوامل التي أكسبت الحوار في قصص القرآني مزيداً من التشويق والإثارة تنوع مصادره ، فتارة يكون الحوار بين الله تعالى وملائكته ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ (البقرة : ٣٠ - ٣٢) .

في الآيات السابقة بلغ الله تعالى ملائكته بجعله آدم (عليه السلام) وذريته خلفاء في الأرض ، وقدم الجار والمجرور (للملائكة) ، وآخر المقول (إني جاعل في الأرض خليفة) ، » وتقديم الجار والمجرور في هذا الباب مطرد لما في المقول من الطول غالباً ، مع ما فيه من الاهتمام بما قدم ، والتشويق إلى ما أخر ... «^(١) .

من خلال الحوار السابق بين الله تعالى لملائكته الحكمة من ذلك ، إذ جاء عرض الأمر عليهم ليسألوا من جانبهم عن الحكمة من جعل آدم خليفة ، ويجب الله تعالى من جانبه عن سؤالهم ، وقيل : ليعلم الله تعالى عباده مبدأ الشورى في الأمر قبل الإقدام على الأعمال^(٢) .

ويلحظ أن الملائكة تشوقوا لمعرفة الحكمة من استخلاف الله تعالى آدم (عليه السلام) في الأرض دونهم .. وكان المشهد الحواري « الذي أداره الله تعالى بينه جلا وعلا وبين ملائكته الأبرار في غاية الإثارة والشوق ، إنه يحرك العقل الإنساني إلى النظر والتبصر والتدبر في كلماته ومعانيه ومغزاه العميق ، وبهذا يرتقي الإنسان ويتقدم »^(٣) .

وفي موضع آخر نطالع حواراً بين الله تعالى وإبليس الذي جادل الله تعالى محتجاً على حكمه وقضائه ، ومتكبراً عن الانصياع لأمره تعالى ، ﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا سَجَدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ أَعُودُ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَمَعَكَ مِنْهُمْ لِأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (الأعراف : ١٢ - ١٨) .

(١) تفسير أبي السعود (المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) : الإمام أبو السعود : ١ / ٧٩ - ٨٠ .

(٢) ينظر : الكشاف : ١ / ٨٢ .

(٣) الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني : ٧٥ - ٨٥ .



وكانت نتيجة الحوار أن أمر الله تعالى إبليس بالخروج من الجنة أو من السماء أو من بين الملائكة، ثم وجه الله تعالى وعيده إلى إبليس ومن سببته بأن مصيرهم وعاقبتهم النار^(١). وبعد ذلك يتخذ الحوار مساراً آخر، ويتجه وجهة أخرى، فتكون البداية بمخاطبة الله تعالى آدم وزوجه حواء (عليهما السلام)، محدداً لهما مكان إقامتهما، ومحذرهما من الاقتراب من الشجرة، ومن ثم يأتي دور إبليس الذي يوسوس لهما؛ ليأكلا من الشجرة، فاستجابا له، وكان نتيجة ذلك أن قدر الله تعالى عليهما الخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض. ﴿وَيَقَادِمُ اسْتَكْرَأْتِ وَرَزَوْنَاكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ يَسْبِيحَ لِمَا مَا وَرَى عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءٍ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَلنَّاصِرِ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِفُرُوقٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْضَعَانِ عَلَيْنِهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّجَرَةَ لَكُمَا عَدُوٌّ يُبِينُ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَنَا تَتَوَّعًا لَكُنَّا نَكُونُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تُحْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (الأعراف: ١٩ - ٢٥).

في الآيات السابقة كان الحوار وسيلة فنية لسرد الأحداث القصصية، وبدا جزءاً مهماً في بناء القصة، إذ شكلت الجمل الحوارية السابقة مشهداً معبراً عن تكبر إبليس وعناده، وإنابة آدم وحواء (عليهما السلام) وتوبتهما الصادقة عما صدر عنهما. وكشف الحوار عن عدوهما ما صدر عنهما من ذنب ظلاماً، وهذا "على عادة الأولياء الصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات، واستصغارهم العظيم من الحسنات"^(٢).

وهناك جانب آخر مهم في الجمل الحوارية السابقة يتمثل فيما حملته من تشويق وإثارة، تجعل المتابع يعيش تحت وطأة ذلك الموقف الرهيب المترتب عن مجادلة إبليس الله تعالى، واحتجازه على قضائه، ونتج عن ذلك طرده من الجنة، فما كان منه إلا أن قام بالوسوسة لآدم وحواء (عليهما السلام)، ونجح في إغوائهما بمعصية أمر الله تعالى، لكنهما تابا إلى الله تعالى، فأمرهما بالهبوط إلى الأرض.

لقد حملت الجمل الحوارية في الآيات السابقة كل هذه الأحداث والمواقف الرهيبة، وقدمتها بصورة مشهد حوارية مشوق، كان الخطاب الرباني المتمثل في مخاطبة الله تعالى إبليس وآدم وحواء (عليهما السلام)، من أهم العوامل التي منحته جلالاً وهيباً وإثارة.

(١) ينظر: تفسير أبي السعود: ٢ / ٢٢٠.

(٢) الكشاف: ٢ / ٩٣.

في الجمل الحوارية السابقة نلاحظ تعدد مصادر الحوار ، فهناك البشر ممثلين في آدم وحواء (عليهما السلام) ، وهناك إبليس ، وقبل ذلك كله منح الخطاب الرباني تلك القصص الجاذبية والإثارة والتشويق ، فالمتابع يقف منبهراً متعجباً من عناد إبليس وتكبره الذي أوصله إلى الاحتجاج على قضاء الله تعالى وقدره ، يضاف إلى ذلك أن الله تعالى قد منحه الفرصة كاملة للتعبير عن رأيه ، وفي هذا توجيه رباني إلى ضرورة نشر ثقافة الحوار في المجتمعات .

وهكذا نجد أن تعدد مصادر الحوار في القصص القرآني يعمل على تقدير وجهات نظر متباينة ، تعبر بجلاء عن كنه اتخاذ الشخصيات المتحاوره للمواقف الصادرة عنها .

والحوار في القصص القرآني يأتي بين الرسل والملائكة^(١) ، ومن نماذجه الحوار الذي جرى بين إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) وضيفه من الملائكة ، ﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ صَنِيفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ (١٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (١٥) فَأَرَادَ إِلَيْنَا أَمَلِيهِ فَجَاءَهُ بِعَبْلِ سَمِينٍ (١٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْنَا قَالَ أَلَا نَأْكُلُ (١٧) فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا نَحْفَظُ وَبَشِّرْهُ بِعَلِيمٍ (١٨) فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَرٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (١٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٢٠) * قَالَ مَا خَطْبُكِ أَيُّهَا الْمَرْسُوتُونَ (٢١) قَالُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٢٢) لِئُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ طِينٍ (٢٣) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٢٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٢٦) وَرَكَّابًا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٧) ﴾ (الذاريات : ٢٤ - ٢٧) .

نقل الحوار السابق بين إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) وأضيفه من الملائكة حلقة من حلقات قصة إبراهيم التي جاءت في القرآن الكريم في مواضع عدة ، وكشف عن حالة الخوف التي عاشها ساعة دخولهم عليه ، وحالة زوجه عندما بشرها بغلام ، وهي عجوز عقيم ! ونلاحظ تعدد أطراف الحوار ، إذ بدأ الحوار بين إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) وأضيفه من الملائكة ، وكان السلام بداية الحوار ، فبادروه بعد الدخول عليه بقولهم : سلاماً ، ورد التحية قائلاً : سلام ، أي عليكم سلام ، وفي هذا مزيد من الإكرام ، فالتعبير بالجملة الاسمية يدل على ثبات السلام ، « كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به ، أخذاً بأدب الله تعالى »^(٢) .

والجانب الآخر من إكرامه لهم أنه قدم لهم عجلًا سميناً ، لكنهم لم يأكلوا منه شيئاً ، فأنكر عليهم ترك الأكل ، وأضر في نفسه خيفة منهم ؛ لأننا منه أنهم يريدون به سوءاً ، لكنهم أخبروه بأمرهم ، وبشروه بغلام ، وهنا تتداخل زوجه في الحوار ، فتتعجب من أن

(١) من نماذج الحوار بين الرسل والملائكة الحوار الذي كان بين داود (عليه الصلاة والسلام) والملكين اللذين تسورا المحراب ، ينظر : سورة ص : ٢٢ - ٢٤ .

(٢) الكشاف : ٤ / ٣٩١ - ٣٩٢ .



يأتيها غلام ، وهي عجوز عقيم ، فأجابوها بأنهم رسل من الله تعالى القادر على كل شيء .
واتخذ الحوار بعد ذلك صورة أخرى ، إذ أخبر الملائكة إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) بسبب
نزولهم ، وبينوا له أنهم مرسلون بالعذاب إلى قوم لوط ^(١) .

في الحوار السابق نجد تعدداً في مصادر الحوار ، وتنوعاً في الموضوعات التي دار الحوار
حولها ، إذ جمع الحوار السابق بين خوف إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) من ضيوفه ، والبشارة
بالغلام ، والإنذار بالعذاب لقوم لوط (عليه الصلاة والسلام) .

وفي سورة مريم يطالعنا حوار متعدد الأطراف . في البداية نطالع حواراً طرفاه مريم
والملك الذي أرسله الله تعالى إليها متمثلاً في صورة بشر ، وقد أخبرها بأنه رسول الله إليها ،
﴿ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ
إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ
يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا
وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ (مريم : ١٧ - ٢١) .

في الحوار السابق تجسيد لحال مريم بعد أن جاءها الملك في صورة بشر سوي ، ليخبرها
بأنه رسول من الله تعالى إليها ، وأنه سيكون سبباً في هبة الغلام . وفي كلمة هبة بشارة
من الله تعالى ، وفي الوقت ذاته ابتلاء عظيم لها ، لكنها واجهت الأمر بالاستعاذة بالله من
ذلك الملك إن كان ممن يخشى الله تعالى . فالحوار السابق أظهر جانباً من جوانب شخصية
مريم العذراء البتول المؤمنة بالله تعالى ، يتمثل في لجوئها إلى الله تعالى في السراء والضراء ،
إذ لجأت إليه في أثناء مواجهة ذلك الابتلاء العظيم ، فاستعاذت بالله تعالى من ذلك الملك ،
وكانت قبل ذلك قد اعتزلت الناس ؛ لعبادة الله تعالى .

إن ما تعرضت له مريم من ابتلاء يعدّ أمراً عجبياً في مقاييس البشر ، فكيف يكون لمريم
العذراء البتول غلام دون أن يمسه بشر ؟ لكن الأمر يسير على الله تعالى الذي خلق آدم من
غير أب أو أم ، فهو - سبحانه - قادر على خلق عيسى (عليه الصلاة والسلام) دون أب .

وجاء الحوار متفقاً مع طبيعة شخصية مريم في ذلك الموقف العصيب ، فهي متوقعة
كل ما ستعرض له من تكذيب واتهام من قبل قومها .

ويتواصل الحوار في القصة بعد ذلك في الكشف عن مراحل تلك القصة العجيبة ، ويتخذ
الحوار صورة أخرى مختلفة ، ففي البداية نطالع الحوار الداخلي الصادر عن مريم بعد أن علمت

(١) ينظر: الكشاف: ٤ / ٣٩٢ - ٣٩٣ .

أن الأمر قد قضي ، وليس أمامها سوى الرضا بقضاء الله وقدره ، فلجأت إلى مكان بعيد عن أهلها وراء الجبل ، وقيل : أقصى الدار ^(١) . وتمنت لو كانت شيئاً تافهاً ينسأه الناس ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ . مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا ﴾ (٢٣) ﴿ (مریم: ٢٢-٢٣) .

وتمنيها أن تكون شيئاً تافهاً لا كراهة لحكم الله تعالى ، وإنما يرجع إلى فرط حياثها ، أو لشدة التكليف عليها إذا اتهمها قومها بالزنا ^(٢) .

والتشويق يتواصل في الحوار من خلال دخول طرف آخر ، قيل : إنه جبريل (عليه السلام) ، وقيل هو عيسى (عليه الصلاة والسلام) ، فكان في حديثه معها بشارة بعيسى ، وتقديم معجزة ظهور عين الماء ، والرطب في فصل الشتاء ، وحمل - أيضاً - توجيهها رانياً بطريقة مجابهة الناس ^(٣) ﴿ فَتَادَبَهَا مِنْ حَتْمِنَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ (٢٤) وَهَزَىٰ إِلَيْكِ الْجَنَّةَ تَسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِينًا ﴾ (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ (٢٦) ﴿ (مریم: ٢٤-٢٦) .

ويتلون الحوار مرة أخرى بصورة مشوقة جاذبة من خلال دخول طرف جديد يتمثل في قومها الذي حملوا عليها ، فاتهموها زوراً وبهتاناً بأنها جاءت شيئاً عظيماً منكرأ ، ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً ، فَأَلَاوِي بَرْمِيسَ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ (٢٧) يَتَّخِذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْعًا ﴾ (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَهْدِ صَيْبًا ﴾ (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ (٣٠) وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا إِنَّا مَا كُنْتُ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (٣٢) ﴿ (مریم: ٢٧-٣٢) .

عملت مريم بأمر الله تعالى لها ، فلم ترد على افتراءاتهم ، واكتفت بالإشارة إلى عيسى (عليه الصلاة والسلام) ، فغضبوا منها ظناً أنها تسخر بهم ، لكن الله تعالى أنطقه بالحق ، فدحض ادعاءاتهم الباطلة .

في قصة مريم انتقل أسلوب العرض من السرد إلى الحوار ، فالقصة كانت تعتمد أسلوب السرد في عرض أحداثها ، إذ قض الله تعالى تلك القصة العجيبة قائلاً : ﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ (٣٣) ﴿ (مریم: ١٦) .

(١) ينظر : الكشاف: ٣ / ١٠ .

(٢) ينظر : الكشاف: ٣ / ١١ .

(٣) ينظر : تفسير أبي السعود: ٣ / ٢٦٢ - ٢٦٣ .



ثم انتقلت القصة من أسلوب السرد إلى أسلوب الحوار بين مريم والمَلَك ، ومن ثم بينها وبين قومها ، بالإضافة إلى الحوار الداخلي الذي عبّرت من خلالها عن شدة الابتلاء الذي تعرضت له . وقد وصف ثروت أباطة الحوار في قصة مريم قائلاً : “أرأيت كيف انتقل السرد إلى الحوار ، أرأيت أن الحوار هنا لا يمكن أن يستبدل بأي وسيلة أخرى من وسائل العرض القصصي ، فكأنما خلق الحوار ليكون في هذا المكان. وقد جاءت النقلة طبيعية ، فأنت تحسُّ بها كالطريق الحريري الممهّد تسير فيه الكلمات طبيعة مواتية . ثم أتى إلى العرض النفسي لمريم ، وكيف يؤدي الحوار توجساً وخوفاً في روعة أخاذه . إن الحوار هنا يؤدي في كل كلمة تطوراً في الحدث والشخصية معاً” (١) .

ومن صور الحوار الأخرى التي اشتملت عليها قصص القرآن حوار الرسل مع أقاربهم ، ومن ذلك حوار إبراهيم مع ابنه (عليهما الصلاة والسلام) بعد الرؤيا التي رآها في منامه ﴿ فَأَمَّا بَلْعُ مَعَهُ السَّمَىٰ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي آرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَا بَتِ أَيْمَنُ مَا تُؤْمَرُ سَبِّحِي بِحَمْدِ اللَّهِ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١١٢﴾ (الصافات : ١٠٢) .

كشفت الحوار السابق بين إبراهيم وابنه (عليهما الصلاة والسلام) الموقف الرهيب الذي عاشه بصورة مؤثرة مشوقة ، وأبرز قوة إيمانهما بالله تعالى وتوكلهما عليه ، إبراهيم كانت قد ألحت عليه رؤيا رآها في منامه ، مفادها أنه يذبح ابنه ، فعلم أنها أمر من الله ؛ لأن رؤيا الأنبياء وحي ، فعرض الأمر على ابنه ؛ ليشاركه معه في الأمر (٢) .

وهكذا كان الحوار وسيلة قصص القرآن الكريم في عرض تلك القصة العجيبة الفريدة ، من خلال تقديم مشهد متكامل ، أو لوحة متكاملة لذلك الموقف العجيب المثير الذي قدمته القصة القرآنية من خلال الحوار المعجز بين الأب وابنه (٣) .

جسد المشهد الحوار السابغ الصراع النفسي الشديد الذي عاشه ، ويلحظ على الحوار فيه « أنه يعتمد على الحكاية - حكاية مقولات القائلين - ونقلها على ألسنتهم ... ويلحظ الباحث كذلك أن الحوار السابق ... هو حوار من النوع القصير غير الممتد، فهو في غاية التركيز . ومع هذا صوّر الحوار الموقف تصويراً تاماً تناول القضية المحورية من جميع جوانبها ، فالمشهد الحوار السابغ مشهد قصير ، ولكنه يجمع أجزاء الحدث كلها» (٤) .

(١) السرد القصصي في القرآن الكريم : ٩١ - ٩٢ .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : القرطبي : ٩٩ / ١٥ - ١٠٣ .

(٣) من نماذج الحوار بين الرسل (عليهم الصلاة والسلام) وأقاربهم الحوار الذي جرى بين نوح (عليه الصلاة والسلام) وابنه عندما طلب منه الركوب معه في السفينة . ينظر : سورة هود : ٤١ - ٤٣ .

(٤) الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني : ٧٩ - ٨٠ .

ومن حوارات الرسل (عليهم الصلاة والسلام) مع أقاربهم الحوار الذي كان بين إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) وأبيه، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿١٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلِيِّرِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿١٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿١٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿١٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ الْهِمَى بِإِبْرَاهِيمَ لَبِنَ لَمْ تَنْتَهُ لِأَرْحَمَنَكَ وَأَهْجُرَنِي مِيلًا ﴿١٦﴾ قَالَ سَلَّمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حُوفِيًّا ﴿١٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ (مريم: ٤٢ - ٤٨).

في الحوار السابق نصح إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) أباه ووعظه بأسلوب مؤدب يتسم باللطف والمجاملة، على الرغم من شناعة ما ارتكب الأب من كفر. وكانت ردة فعل الأب مغايرة لما جاء في قول إبراهيم (عليه الصلاة والسلام)، إذ أقبل عليه متوعداً ومهدداً وأمرأ بأن يهجره. أما إبراهيم فاستجاب لأمر أبيه فاعتزلهم بالهجرة إلى الشام، مع مواصلة اعتماد أسلوب اللطف في المعاملة، وبرز ذلك في قوله لأبيه: (سلام عليك سأستغفر لك ربي) (١).

ومن صور الحوار التي جاءت في قصص القرآن حوار الرسل مع أقوامهم، وهذا النوع من الحوارات كان له حضور لافت في قصص القرآن، فالرسل (عليهم الصلاة والسلام) أصحاب رسالات ودعوات، والحوار مع أقوامهم كان وسيلة من أهم وسائل الدعوة إلى الله تعالى، وتوضيح الأفكار، والرد على الشبه، ومن نماذج ذلك ما نطالعه في سورة البقرة في قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) مع قومه من بني إسرائيل، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنَلْنَاهَا هُرُومًا قَالِ أَسْأَلُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُنْجِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا أَذْبَحْ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا بَيْنَ إِبْنِهَا وَإِبْنِهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِشٌ وَلَا يَكْرُ عَوَائِنَ بَيْتِكَ ذَلِكَ فَاغْفَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَذْبَحْ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ هُنَّ قَالَ إِلَهُهُ، يَقُولُ إِبْنِهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا كَلَسْرُ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَذْبَحْ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُبِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا لَنَن قِحَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ (البقرة: ٦٧ - ٧١).

جسد الحوار السابق بين نبي الله موسى (عليه الصلاة والسلام) وقومه قصة مكتملة الجوانب، تمثل حلقة من قصة موسى التي جاءت في القرآن الكريم، فقد أمر الله تعالى بني إسرائيل بأن يذبحوا بقرة، ويضربوا القتيل ببعضها ليحيا، فيخبرهم بقاتله، فلم يمتثلوا لأمر

(١) ينظر: الكشاف: ١٧-٢١.



اللَّهُ تعالى مباشرة، وترددوا، وظلوا يساءلون موسى عن حقيقة تلك البقرة! لقد جاء أمر الله تعالى بذبح بقرة، أي بقرة، لكنهم تشددوا فشدد الله تعالى عليهم، ولو أنهم استجابوا لأمر الله تعالى من الوهلة الأولى، فذبحوا أول بقرة يجدونها لكفتمهم^(١).

لقد جاء الحوار في القصة السابقة مثيراً ومشوقاً وكاشفاً عن حال أولئك القوم الذين شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، وأظهر عنادهم، وترددهم في تنفيذ أمر الله تعالى. وقد عبر قوله تعالى في الآيات السابقة: (وما كادوا يفعلون) عن ترددهم في تنفيذ أمره تعالى.

وفي قصة سليمان (عليه الصلاة والسلام) في سورة النمل نطالع حواراً مختلفاً يتمثل في الحوار الذي جاء بين نبي الله تعالى سليمان (عليه الصلاة والسلام) و الهدهد^(٢). ومن ثم يتخذ الحوار صورة أخرى في القصة نفسها، إذ ينتقل إلى حوار من نوع آخر، يتمثل في حوار بين سليمان (عليه الصلاة والسلام) والجن الذين سخرهم الله تعالى له^(٣).

وهكذا نجد أن الحوار في قصص القرآن كان عنصراً من العناصر الفنية التي منحت تلك القصص مزيداً من التشويق والإثارة، من خلال تقديم مشاهد حوارية تتسم بتعدد مصادر الحوار، فنطالع فيها حوارات يشترك فيها فئات متباينة، منهم الرسل والأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، والملائكة، والجن، والصالحون، والطالحون، وحتى الحيوان كان له حضور في هذه الحوارات. ومع هذا التنوع والتعدد في مصادر الحوار في قصص القرآن إلا أنه حافظ على مستوى الأداء الفني المعجز، وجاء متفقاً مع طبيعة الشخصيات والمواقف المختلفة، فتارة نراه مجملاً، وتارة أخرى نراه مفصلاً؛ وذلك بحسب ما يقتضي المقام.

وهو - أيضاً - لم يسلك «مسلك التبسط فحسب، بل رسم فيها معالم الشخصيات الإنسانية، بالتعبير عن خواطرهم النفسية وآرائهم ومواقفهم، وما شجر بينهم من صراع، على طريقة الحكاية عنهم، ونقل أقوالهم نقلًا أميناً لا مبالغة فيه ولا افتعال ...

وهو لا ينقل كل ما دار بينهم، وإنما يختار اللقطات الموحية، والعناصر الحية التي تحقق الغرض، وتفي بالحاجة، وتكون أكثر دلالة ومغزى»^(٤).

أما أجل وأروع ما في الحوار في قصص القرآن فكان الخطاب الرباني في بعض تلك القصص، إذ منحها جلالاً وهيباً وتشويقاً وجاذبية.

(١) ينظر: تفسير أبي السعود: ١١٠/١ - ١١٣. والكشاف: ١٥٠/١ - ١٥٤.

(٢) ينظر: سورة النمل: ١٨ - ٢٨.

(٣) ينظر: سورة النمل: ٣٨ - ٤١.

(٤) سيكولوجية القصة في القرآن: ٤١١.

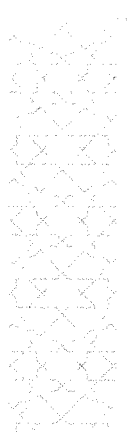
المبحث السادس : الاقتصار على تقديم الجوانب المهمة :

من عناصر التشويق والإثارة والجاذبية والقوة في قصص القرآن الكريم الاقتصار في تقديم العناصر الفنية على الجزئيات والتفصيلات والجوانب المهمة المتصلة بموضوع القصة وتحقيق مقاصدها العقدية والتربوية، إذ يقوم أسلوب تلك القصص على مبدأ اختيار اللقطات الحية المعبرة من الوقائع التاريخية، وذكر الأوصاف والتفصيلات المتعلقة بالشخصيات والأماكن والأزمنة المؤثرة في مسار القصة، ويعنى « بإبراز الأحداث ذات الشأن في موضوع القصة، دون الالتفات إلى الجزئيات التي يُشير إليها واقع الحال، وتدل عليها دلالات ما بعدها وما قبلها من صور، وذلك مما يُشوق القارئ ويُوقظه، ويفرض عليه مشاركة فعالة في تكملة أجزاء القصة، واستحضار ما غاب من أحداثها، وهذا ما يجعله يندمج في القصة، ويعيش في أحداثها، ومن ثم يتأثر بها، وينتفع بما فيها من عظات وعبر»^(١).

أما الجوانب غير المهمة فلا يُلتفت إليها، حتى لا تصرف المتابع عن التدبر والاعتبار. وهذا المنهج المتبع في قصص القرآن الكريم يمنحها مزيداً من التشويق والجاذبية، إذ يظل المتابع مرتبطاً بموضوع القصة، ومشدوداً لمتابعة تطورات أحداثها، ومصير شخصياتها. إن القصة القرآنية تكتفي في تقديم الشخصيات بذكر الأوصاف ذات الصلة بموضوع القصة ومقاصدها، وتقتصر على ذكر الأحداث المؤثرة في بنائها، وحينما تتحدث عن الزمان والمكان الذي جرت فيهما الأحداث، فإنها تكتفي - أيضاً - بذكر التفصيلات المهمة، أما التفصيلات التي لا قيمة لها فتتجاوزها.

وفي هذا المقام سأعرض نماذج توضح طريقة قصص القرآن الكريم في التعامل مع هذه العناصر، ففي قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) مع العبد الصالح، لم تصرح القصة باسم العبد الصالح، ولم تبين حقيقته، ولم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى المكان الذي قَدِم منه، أو مصيره بعد انتهاء رحلته العجيبة مع نبي الله موسى (عليه الصلاة والسلام)، فشخصيته - كما جاءت في القصة القرآنية - مجهولة للمتابعين، إذ اكتفت بوصفه بأنه عبد أتاه الله من لدنه علماً. ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (الكهف : ٦٥) . وهذا الجانب الذي كشفته القصة القرآنية هو الجانب الأبرز في شخصيته، وهو - أيضاً - الجانب الجدير بالالتفات إليه.

(١) القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور: ٥٦. وينظر: سيكولوجية القصة في القرآن: ٨٧.



ونلاحظ هنا أن إحاطة شخصية العبد الصالح بهذه الهالة من الغموض منحها مزيداً من التشويق والإثارة ، إذ تثير مجموعة من الأسئلة في أذهان المتابعين ، لكن سرعان ما تزول تلك الأسئلة بعد أن يقف المتابع على المغزى الذي رسخته تلك الشخصية العجيبة .

وفي قصة الفتية أصحاب الكهف والرقيم نجد أن القصة القرآنية لم تذكر لنا أسماء الفتية ولا عددهم ، ولا اسم الملك الذي ظهروا في عصره ، ولا المكان الذي كانوا يعيشون فيه ، ولا موقع الكهف العجيب الذي لجؤوا إليه ، بل اكتفت بإخبارنا بأن أصحاب الكهف والرقيم فتية آمنوا بربهم ^(١) ، « أما أسماءهم ووظائفهم ومواطنهم وغير ذلك من وسائل التعريف ، فليس شيء من ذلك بضروري للبناء القصصي هنا ، إذ القصة لا تقدم تاريخاً ، ولا تحليلاً نفسياً ، بقدر ما تقدم عبرة وعظة من حدث وقع لهذه الجماعة في إحدى دورات الحياة ، إذ المهم أن نتعرف على هذا الجانب فحسب من أبطال القصة ، وما زاد على ذلك يكون ثرثرة وحشواً لا فائدة منه » ^(٢) .

وفي قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف ^(٣) لم نطلعنا القصة القرآنية على اسم الرجل صاحب الجنتين أو مكان ظهوره أو العصر الذي عاش فيه ، ولم تكشف لنا عاقبته ، وكذلك الحال مع صاحبه ، فالمهم في الأمر العبرة التي قدمتها القصة .

وفي قصة ذي القرنين ^(٤) - أيضاً - لم تفصح القصة القرآنية عن حقيقة ذي القرنين . وكان الاختلاف حول تحديد شخصيته من أهم الأسباب التي منحت القصة مزيداً من التشويق ، فالسؤال طرح قديماً وما زال يطرح ، من يكون ذلك الملك الذي مكّن الله تعالى له في الأرض ؟ ^(٥) .

وفي قصة كليم الله تعالى موسى (عليه الصلاة والسلام) نجد أن القصة - على سبيل المثال - لم تشر إلى الأحداث التي جرت في السنوات التي قضاها موسى في مدين عند الشيخ الذي تزوج موسى ابنته ^(٦) ، وهي مدة طويلة ، يرجح أنها عشر سنوات ، وهي المدة الأوفى ^(٧) . كذلك لم تصرح القصة القرآنية باسم الشيخ واسم ابنته وكيف كانت حياة موسى (عليه الصلاة والسلام) معها ؟ وهل أنجب منها أبناء ؟ وغير ذلك من الجوانب التي لم تأت في القصة القرآنية . ونجد أن كتب التفسير قد نقلت لنا أخباراً كثيرة عن مثل هذه التفصيلات التي لم ترد في قصص القرآن ، لأنها لا تتفق مع طبيعة تلك القصص التي تساق للعظة والاعتبار ^(٨) .

(١) ينظر : سورة الكهف : ١٣ .

(٢) البيان القصصي في القرآن الكريم : ٢٥ .

(٣) ينظر : سورة الكهف : ٢٢ - ٤٤ .

(٤) ينظر : سورة الكهف : ٨٢ - ٩٩ .

(٥) ينظر : ذو القرنين (ذلك الملك الصالح الطواف من يكون ؟) : عبد الرحمن يوسف العبد .

(٦) ينظر : سورة القصص : ٢٧ - ٢٩ .

(٧) ينظر : الكشاف : ٣ / ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٨) ينظر : نظرات في أحسن القصص : ٢ / ٢٥ - ٣٢ .

وفي قصة سليمان (عليه الصلاة والسلام) مع ملكة سبأ نجد أن القصة القرآنية ، لم تحدد اسم الملكة . ولم تشر إلى مصيرها بعد إسلامها^(١) ، إذ اكتفت القصة القرآنية بالتصريح بأنها امرأة ، وقد عبرت عنها « بالقدر الذي تحتاجه القصة ، وأما اسمها فلسنا في حاجة إليه ، وإذا كان لها دور تاريخي يحتم التعرف على شخصها فيكفي أن نعرف أن المرأة كانت تملك سبأ في زمن سليمان ، حدث منها ولها كذا »^(٢) .

فالقصة - كما جاءت في القرآن الكريم - لا تعرض « لشيء من رحلة الهدد إلى سبأ ، وهو يحمل كتاب سليمان إلى القوم ، كما لا تذكر شيئاً عن ملكة سبأ ، وهي تجد كتاب سليمان بين يديها ، وما وقع في روعها من هذا الأمر العجيب ، الذي طلع عليها من حيث لا تدري ! كما لم يذكر القرآن ما كان بينها وبين أهل سرها من حديث في هذا الحدث العظيم . كل ذلك لم تعرض له القصة القرآنية ، فتلك أمور مقدّر لها أن تقع حتماً ، على صورة أو أكثر من صورة . وفي هذا الفراغ يتحرك ذهن القارئ ، وتستيقظ مشاعره ، حيث يرى لزماً عليه أن يملأ هذا الفراغ بأي صورة يجدها مناسبة لهذا المكان ، وبهذا يتاح للناس - في كل زمان ومكان - أن يتصوروا ويتخيلوا ، وأن يشاركوا بهذا التصور والتخيل في بناء القصة ، وألا يظلوا في عزلة عنها ، غريباء عن مجريات أحداثها ...»^(٣) .

وهذا الأمر أكسب قصص القرآن مزيداً من التشويق والإثارة من خلال إطلاق المتابع العنان لخياله لملء الفجوات التي تركتها القصة القرآنية . وقد عنيت كتب التفسير بسرد أخبار كثيرة عن مثل تلك التفصيلات والجزئيات التي تجاوزتها القصة القرآنية ، فيذكرون أن سليمان (عليه الصلاة والسلام) كان قد تزوج ملكة سبأ ، ويشيرون إلى محاولة الجن صرفه عنها^(٤) . ومثل هذه التفصيلات لا تعنى بها القصة القرآنية ، فهي ليست قصة تساق لمجرد التسلية وتمضية الوقت ، ولا كتاب تاريخ للأحداث والشخصيات ، وإنما هي قصص واقعية تساق لتحقيق مقاصد دينية ودينيوية ، وتكتفي بعرض الجزئيات التي تسهم في تحقيق تلك المقاصد ، وتتجاوز كل ما عدا ذلك .

وهكذا ، فإن منهج القصص القرآني في التعامل مع العناصر الفنية يتمثل في أن الأشخاص « ليسوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون يراد إبراز معالمهم ، وكشف أحوالهم والتمجيد أو التنديد بأعمالهم ، وإنما يعرض القرآن ما يعرض من شخصيات

(١) ينظر : سورة النمل : ٢٢ - ٤٤ .

(٢) البيان القصصي في القرآن الكريم : ٤٤ .

(٣) القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور : ٣٧ .

(٤) ينظر : الكشاف : ٣ / ٢٥٨ . ونظرات في أحسن القصص : ٢ / ٢٤٧ - ٢٤٨ .



ك نماذج بشرية في مجال الحياة الخيرة أو الشريرة . وفي صراعها مع الخير والشر ، وفي تجاوبها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار ...

وكذلك الشأن في الأحداث التي يعرضها القرآن في قصصه ، إنها ليست إلا محاكاة اختبار تظهر فيها معادن الرجال ، وتختبر بها مواطن القوة والضعف فيهم ، ومنازع الإحسان والسوء منهم !^(١) .

أما البيئة المكانية والزمانية فالقصة القرآنية لا يعينها ولا يصفها إلا إذا كان لها أثر في موضوع القصة ومقاصدها ، ومن نماذج ذلك وصف الكهف في قصة الفتية أصحاب الكهف والرقيم ، ﴿ وَرَى السَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَوُّورَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ اللَّيْلِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُورَهُمْ ذَاتَ السَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجْدَ لَهُ . وَإِلَّا تُرْشِدَا ﴾ (الكهف: ١٧) .

في الآية السابقة وصف موجز لموقع الكهف العجيب الذي هياها الله تعالى لأولئك الفتية ، فهم " في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها ، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم "^(٢) . ومن هنا نلاحظ أن وصف موقع الكهف كان له مبرر ، إذ بين للمتابعين أن حرارة الشمس لم تصل إليهم ، وهذا - بطبيعة الحال - من تدبير الله تعالى ، وفي ذلك دعوة إلى اتخاذ الأسباب في كل أمور الحياة . وفي القصة نفسها يطالعنا تحديد للمدة التي مكثها الفتية أصحاب الكهف في ذلك

الكهف العجيب ، ﴿ وَابْتُورَ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴾ (الكهف: ٢٥) . أي " لبثوا فيه أحياء مذبوراً على أذانهم هذه المدة "^(٣) . وفي تحديد المدة الزمنية الطويلة التي لبثوا فيها في الكهف بيان عظمة المعجزة الإلهية ، وإبراز قدرة الخالق (عز وجل) . ومن هنا يمكن أن نقول : إن تحديد مدة مكث الفتية أحياء في الكهف كان لتحقيق مقاصد دينية ، جاءت في السياق نفسه الذي تحققة قصة الفتية أصحاب الكهف ، بل قصص سورة الكهف الأربع بصورة عامة ، فكل شيء في هذا الكون هو من تدبير الخالق (عز وجل) .

وهكذا نجد أن للقرآن الكريم منهجاً متفرداً في تقديم العناصر القصصية يتمثل في الاقتصار على تقديم العناصر المؤثرة في موضوع القصة ومقاصدها ، ويتجاوز ما عدا ذلك من الجوانب التي يمكن الاستغناء عنها ؛ وبذلك يظل المتابع لتلك القصص متحفزاً متشوقاً لاستقبال ما يطرأ من أحداث ، ومرتبياً بموضوع القصة .

(١) القصة القرآنية في منطوقه ومفهومه : ٤١ .

(٢) الكشاف : ٦٨١ / ٢ .

(٣) الكشاف : ٦٨٨ / ٢ .



الخاتمة :

الحمد لله وكفى . والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى ، أما بعد :
فأحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له أن مكنتني من إتمام هذا البحث الذي اتجه إلى
الوقوف عند الإعجاز القصصي في قصص القرآن الكريم من خلال إبراز عنصر التشويق في
تلك القصص المعجزة الفريدة .

وقد أوضح البحث مفهوم التشويق وأهميته في الفن القصصي ، وأنه من أهم العناصر التي
تجعل المتابع يقبل على متابعة أحداث القصة بترقب وشغف .

واتجه البحث بعد ذلك إلى دراسة ستة من أبرز أساليب التشويق في قصص القرآن
الكريم تمثل نماذج لطريقة تلك القصص في عرض موضوعاتها وتحقيق مقاصدها بصورة
مشوقة مائعة جاذبة ، وهي: تقديم الأحداث المعجزة الخارقة للعادة ، وتنوع الشخصيات،
وعنصر المفاجأة ، وبراعة التصوير ، وفنية الحوار ، والاقتصار على تقديم الجوانب المهمة .

واقصر البحث على العناصر الستة السابقة لا يعني بأي حال من الأحوال حصر أساليب
التشويق في قصص القرآن الكريم فيها ، فعناصر التشويق في تلك القصص أكبر من أن
تحصى ، لكن البحث أراد أن يقدم نماذج لإعجاز تلك القصص في جانب التشويق ، وهو جانب
مهم في منح القصص الحركة والحيوية ، مما يؤدي إلى إقبال المتابع على متابعة الأحداث
بكل شوق وشغف .

إن هذا البحث يأمل أن يتجه كتاب القصة إلى قراءة قصص القرآن الكريم - أحسن
القصص - لتقديم قصة فنية تستمد أصولها الموضوعية والفنية من ذلك القصص المعجز في
بيانه وموضوعاته ومقاصده وطريقة عرضه ، حتى تحقق قصصهم الأهداف المنشودة ، فتكون
وسيلة من وسائل بناء المجتمعات لا هدمها كما نراه ماثلاً في كثير النماذج القصصية التي
نطالعها حالياً في ساحتنا الأدبية ، ومن المؤسف أنها اتخذت من تقديم المواقف الجنسية
المنحرفة ، والمبالغة في استخدام اللهجات العامية ، والخروج على قيم المجتمع الدينية
والأخلاقية - وسائل تشويق رخيصة مبتذلة ؛ بهدف دفع فئة الشباب من القراء إلى الإقبال
عليها ، وحققت بذلك شهرة مؤقتة وانتشاراً واسعاً سرعان ما يزول .

ومن هنا أكدت هذه الدراسة من خلال الوقوف على أساليب التشويق التي حفل بها
قصص القرآن - أن التشويق يمكن أن يتحقق بمثل هذه الأساليب الفنية الرائعة النظيفة التي
نطالعها في قصص القرآن .



وختاماً ، فما هذه الدراسة التي أقدمها إلا دعوة إلى الكُتّاب إلى إعادة النظر فيما يكتبون من قصص ، فمن خلال مشروعني النقدي الذي اتجهت فيه إلى قصص القرآن الكريم ؛ باحثاً عن بعض مواطن الحسن والإعجاز في تلك القصص المعجزة ؛ لأقدم من خلاله الفكرة التي أؤمن بها ، وأرنبو إلى تحقيقها ، وهي الدعوة إلى قيام قصة إسلامية عربية تستمد أصولها الفنية والموضوعية من قصص القرآن الكريم الذي وصفه الله تعالى في كتابه العزيز بأنه أحسن القصص . سائلاً المولى (عز وجل) التوفيق والسداد للجميع .

* * *



- المصادر والمراجع :

١. الأدب وفنونه : د. عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي - القاهرة ، (د ت) .
٢. أسلوب الدعوة القرآنية : بلاغة ومنهاجاً : د. عبد الغني محمد سعد بركة ، مكتبة وهبة - القاهرة ، (١٤٠٣هـ / ١٣٨٣م) .
٣. بناء الشخصية في القصة القرآنية : د. مصطفى عليان ، دار البشير - الأردن ، ط١ ، (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م)
٤. البيان القصصي في القرآن الكريم : د. إبراهيم عوضين ، دار الأصالة - الرياض ، ط ٢ ، (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) .
٥. التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ، دار الشروق - القاهرة وبيروت ، ط ١١ ، (١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م)
٦. تفسير أبي السعود (المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) : الإمام أبو السعود ، دار إحياء التراث - بيروت ، (د ت) .
٧. دراسات في القصة العربية الحديثة : د. محمد زغلول سلام ، منشأة معارف الإسكندرية ، (١٩٨٧م) .
٨. الدرعية (مجلة) السنة العاشرة ، العددان : السابع والثامن والثلاثون (ربيع الأول - جمادى الآخرة ، ١٤٢٨هـ) ، بحث (جمالية البداية والنهاية في القصة القرآنية : د. عبد الله العريني : ١٩٥ - ٢٣٠) .
٩. ذو القرنين (ذلك الملك الصالح الطوّاف من يكون ؟) : عبد الرحمن يوسف العبد ، البشير للنشر والتوزيع - القاهرة ، (د ت) .
١٠. الجامع لأحكام القرآن : القرطبي ، صححه هشام البخاري ، دار عالم الكتب - الرياض ، ط١ (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) .
١١. الحوار القرآني بين التفسير والتبصير : أحمد سنبل ، دار ابن هانئ - دمشق ، ط١ (١٩٩٨م) .
١٢. الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني : د. عبد المرضي زكريا ، مكتبة زهرة الشرق - القاهرة ، (د ت) .
١٣. خصائص القصة الإسلامية : د. مأمون فريز جرار ، دار المنارة - جدة ، ط١ (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م)
١٤. السرد القصصي في القرآن الكريم : ثروت أباطة ، دار نهضة مصر - القاهرة ، (د ت) .
١٥. سيكولوجية القصة في القرآن : د. التهامي نقرة ، الشركة التونسية للتوزيع - تونس ، (١٩٧٤م) .

١٦. فن القصة : د. محمد يوسف نجم ، دار الثقافة - بيروت ، (د ت) .
١٧. فن كتابة القصة : حسين قباني ، دار الجيل - بيروت ، ط ٣ (١٩٧٩م) .
١٨. القاموس المحيط : الفيروز أبادي ، دار الكتاب العربي ، (د ت) .
١٩. القصة في القرآن (مقاصد الدين وقيم الفن) : محمد قطب عبد العال ، دار قباء - القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) .
٢٠. القصة القرآنية : هداية وبيان : د. وهبة الزحيلي ، دار الخير - بيروت ، ط ١ (١٤١٣هـ) .
٢١. قصص الأنبياء : ابن كثير ، تحقيق . عبد المجيد طعمة حلي ، دار المعرفة - بيروت ، ط ٦ (١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) .
٢٢. القصص في الحديث النبوي : د. محمد الزير ، دار المدني - جدة ، ط ٣ .
٢٣. قصص القرآن (من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل) : د. محمد بكر إسماعيل ، دار المنار - القاهرة ، ط ١ (د ت) .
٢٤. القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور : عبد الكريم الخطيب ، مؤسسة دار الأضالة ، ط ١ (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤) .
٢٥. القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : عبد الكريم الخطيب ، دار المعرفة - بيروت ، ط ٢ (١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م) .
- ٢٦ - ٢٦. الكشاف : الزمخشري ، رتبه وضبطه محمد عبد السلام شاهين دار الكتب العلمية - بيروت ، ط ٤ (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م) .
٢٧. معجم المصطلحات الأدبية : إبراهيم فتحي ، التعااضدية العمالية - تونس ، ط ١ (١٩٨٦م) .
٢٨. منهج القصة في القرآن ، محمد شديد ، شركة عكاظ - جدة ، (٢٠٠٤هـ / ١٩٨٤م) .
٢٩. نظرات في أحسن القصص : د. محمد السيد الوكيل ، دار القلم - دمشق ، ط ١ (١٤١٢هـ / ١٩٩٤م) .
٣٠. نظرات في قصص القرآن : محمد قطب عبد العال ، رابطة العالم الإسلامي - مكة ، السنة الحادية عشرة - العدد (١٢٢) ، صفر (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) .

* * *